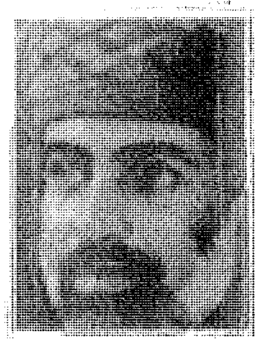
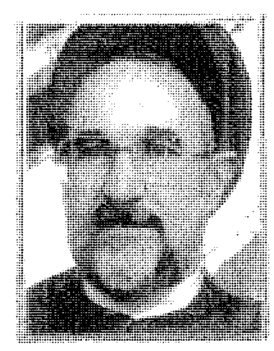
عادل عبد الصبور

الملوك والأمراء

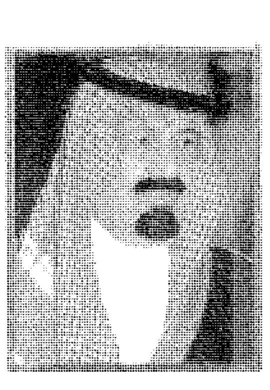
الأسرار من الداخل







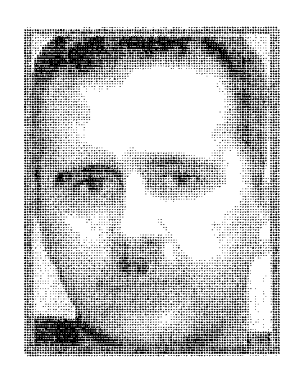






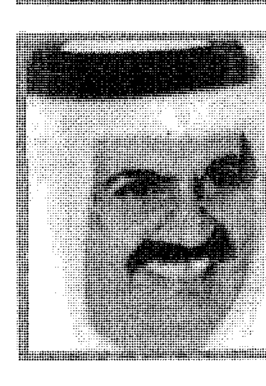
















الدار العالمية للكتب والنشر

ملوك وأمراء
الأســرار من الداخــل

عادل عبد الصبور

الناشر
الدار العالمية للكتب والنشر

اسم الكتاب : ملوك وأمراء

تأليف : عادل عبد الصبور

الطبعة الأولى : ٢٠٠٠

رقم الإيداع : (١٠٤٣٦ – ٢٠٠٠)

المقدمة

ما الذى يحدث فى منطقة الخليج ؟

ما الذى يحدث فى منطقة الخليج ؟

بادئ ذى بدء فإننا لسنا بصدد الخوض فى سرد الأهمية الحيوية والعالمية والاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى بوصفها تضم أكبر النسب من الاحتياطى النفطى العالمى أو بوصفها تمثل حائط الصد العربى من ناحية الشرق كما تؤكد العديد من الكتب على ذلك، لسبب أساسى وبسيط هو أن هذه الحقائق قد خبرها القراء العرب من الخليج إلى المحيط، مثلما خبروا أيضاً أن هذه المنطقة هى مطمع ومطمح للقوى الدولية المستأسدة فى النظام الدولى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، والتى تسعى بكل الوسائل لإظهار تضررها وزعامتها للنظام الدولى؛ بوصفها القطب الذى خرج منتصراً فى المواجهة الباردة مع الاتحاد السوفيتى .

على ماذا سينصب تركيزنا إذن ؟

الإجابة تكمن فى أن تركيزنا سينصب على ما انتاب هذه المنطقة الحيوية من تغيرات جمة بعدما خرجت القوات العراقية من الكويت على أيدى قوات التحالف التى قادتها الولايات المتحدة الأمريكية .

والتغير الأول ، يتمثل فى أنه رغم التوجس الذى لا يزال ينتاب دول الخليج من أن يعاود الرئيس العراقى الغزو مرة أخرى، استطاعت هذه الدول. باستثناء الكويت المعين عليها. أن تقول للولايات المتحدة (لا) لاستغلال أراضيها كقاعدة انطلاق لتدمير قدرات العراق، وإذلال شعبه، وهى ظاهرة إيجابية جداً فى مواقف هذه الدول .. من ناحية أولى لأنها مثلت الرغبة الحقيقية لشعوب هذه الدول فى عدم تدمير شعب شقيق وتهديد وحدة أراضيه، بغض النظر عن سلوكيات القيادة العراقية.. ومن ناحية ثانية لأنها أثبتت للولايات المتحدة أن بإمكانها أن تقول (لا) وأنها لديها إرادة سياسية أصبحت تلفظ الحضور الأمريكى فى المنطقة، وهى سابقة خطيرة فى التعامل مع الولايات المتحدة، والتى كانت تعتقد أنها يمكن أن تملى ما تشاء من سياسات على هذه الدول، وفى أى وقت بوصفها حامى حمى المنطقة، والتى خلصتها مما كان العراق مقدماً عليه .

أما التغير الثانى، فيتمثل فى الانفراجة الحذرة فى علاقات دول الخليج بالدول العربية الأخرى، التى كانت تصنف بأنها (مع) الغزو العراقى للكويت، بل وبلغ الأمر غايته حينما ارتسم البعض

سيناريوهات للمصالحة العراقية مع دول الخليج، وما يمكن أن يترتب على ذلك من إيجابيات فى المستقبل القريب والبعيد .

أما التغير الثالث، فيتمثل فى إلحاحية معضلة أمن الخليج، بعد ما أثبتت الأحداث، أن منطقة الخليج عرضة للعديد من السهام المسمومة التى يمكن أن توجه إليها من جانب العديد من القوى الدولية والإقليمية، لا سيما بعدما تبنت الولايات المتحدة سياسة الاحتواء المزدوج للعراق وإيران، بل وتحاول الولايات المتحدة حالياً أن تسير مع وتيرة علاقاتها مع إيران متغاضية عن الحرب المستترة والمعلنة التى دارت بين الجانبين خلال الحقبة السابقة، وليس بخاف على أحد ما تصبو إليه إيران من تقويض أمن الخليج أو زعزعته، حتى تكون القوة رقم واحد فى المعادلة الإقليمية .

وهو الهدف الذى يأخذ كل يوم زخماً إضافياً تحت دعاوى إيرانية مشبوهة؛ منها ما هو دينى يتمثل فى حماية الشيعة المنخرطين أساساً فى مجتمعاتهم العربية الخليجية، ومنها ما هو سياسى يهدف إلى تحقيق مطامع معينة فى الأراضى الخليجية، وخير مثال على ذلك هو موضوع الجزر المتنازع عليها مع دولة الإمارات العربية المتحدة.

إذ أكدت مصادر خليجية وثيقة الاطلاع أن النزاع بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران حول الجزر الثلاث " طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى " ليس ناتجاً عن سوء تفاهم كما تقول طهران بل عن خلاف جوهري وعميق بين البلدين حول السيادة على هذه الجزر. وأوضحت المصادر أن القيادة الإيرانية تحاول من خلال تصريحاتها العلنية وتسريبات مدروسة إلى صحف ووسائل إعلام عربية، التستر على الأسباب الحقيقية للنزاع حول الجزر الثلاث، كما تحاول خصوصاً تجنب تسليط الأضواء على موقفها الحقيقي وهو أنها تعتبر هذه الجزر " جزءاً لا يتجزأ من السيادة الإيرانية " وترفض إعادتها إلى دول الإمارات وإلى السيادة العربية كما تطالب بذلك كل الدول العربية التى تعتبر قضية الجزر قضية عربية لا إماراتية "، وذكرت المصادر الخليجية المطلعة أنه انطلاقاً من ذلك فإن الاقتراح الذى قدمه الرئيس الإيرانى محمد خاتمى إلى وزير خارجية الإمارات الشيخ راشد بن عبد الله النعيمى بعقد لقاء مع الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات أما فى أبو ظبى أو فى طهران " للتباحث حول قضية الجزر الثلاث .. هذا الاقتراح لا جدوى منه " إلا إذا ارتبط باستعداد إيران للتباحث مع الإمارات على إعادة الجزر إليها أو للتفاهم معها على " الإطار " الذى ستجرى فيه المفاوضات بين الجانبين لبحث موضوع السيادة على هذه الجزر لكن

القيادة الإيرانية ليست مستعدة إطلاقاً لذلك ولا تريده برغم ما تعلنه من استعداد لفتح صفحة جديدة فى علاقاتها مع العرب، مناقشة موضوع السيادة على الجزر إذ أنها لا تنوى التخلى عن الجزر الثلاث بل إن كل ما تريده هو تهدئة الأمور مع دولة الإمارات لكى " تنسى " هذه الدولة أو تتجاوز قضية الجزر.

وقد أكدت المصادر الخليجية أن هذا الأمر ليس وارداً إطلاقاً بالنسبة إلى دولة الإمارات وهو ما عبر عنه مجدداً الشيخ زايد بن سلطان الذى أكد رفضه التخلى عن " أى شبر أو أية حبة رمل فيها " لإيران .

وانطلاقاً من ذلك كله يمكن القول إنه لا جديد على صعيد قضية الجزر خلافاً لما تحاول القيادة الإيرانية إرسائه من ملكية هذه الجزر إليها رغم ما بذلك من مغالطات تاريخية .

أما التغير الرابع، فيتمثل فيما طرأ على منطوقة علاقات هذه الدول ببعضها البعض، إذ لا يزال مجلس التعاون الخليجى من الناحية العملياتية محدود الفاعلية، كما أن المشاكل القائمة بين هذه الدول أن تعيد إنتاج مضامينها من وقت لآخر، فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ لا زالت المشاكل الحدودية التى خلفتها الحقبة

الاستعمارية موضع قلق فى المنطقة برمتها، فالكويت تتوجس من أن تعاود العراق غزوها بدعوى أنها تاريخياً تنتمى إليها، وقطر والبحرين ينظرا نزاعهما الحدودى على جزر فشت الدريل وخوار أمام محكمة العدل الدولية، واليمن من وقت لآخر يوجه أصابع الاتهام إلى السعودية بأنها تسعى لتقويض استقراره بغية الاستحواذ على بعض المناطق الحدودية المتنازع عليها،وهذه كلها محطات ساخنة تفتح الباب للقوى الطامعة لإيجاد الاختلافات بين الأشقاء الخليجيين .

أما التغير الخامس والأخير، فيتمثل فيما تشهده دول الخليج من انفتاحية لم تشهدها من قبل فى العملية السياسية الداخلية، سواء عن طريق بناء الأطر المؤسسية اللازمة لذلك، أو عن طريق خلق أنماط جديدة للممارسين السياسيين، وهى ظاهرة جديرة بالدراسة، ولكن يضيق بنا المجال هنا لتقصى أبعادها..

الفصل الأول
آل سعود أسرار وحقائق

لقد تجلت قدرة الله سبحانه وتعالى فى أن جعل من المملكة العربية السعودية مهداً للعروبة والإسلام، وجعل من مكة المكرمة تحديداً قبلة يتجه شطرها ملايين المسلمين من شتى بقاع الأرض يومياً، وتهفو إلى زيارتها قلوب هذه الملايين سنوياً .

كذلك حبا الله المملكة العربية السعودية ثروة بترولية رائعة جعلت منها مطمعاً للعديد من القوى الدولية والإقليمية .

ولعلها حكمة إلهية أن تتسع مساحة الصحارى بالمملكة العربية السعودية وأن تتميز ظروفها المناخية بالقسوة .. حيث كانت هذه الطبيعة الجغرافية القاسية حائط الصد الأساسى الذى حال دون احتلال البلاد إبان فترة المد الاستعمارى .

ولقد كان " برترام توماس " أول أوربى تطأ قدماه فى عام ١٩٣٠ منطقة الرملة المعروفة فى الغرب " بالربع الخالى " موطن أسرة آل سعود والواقعة إلى الجنوب من منطقة نجد . ولم يكن هناك أية معلومات عن هذه المنطقة قبيل اكتشاف البترول بها . كما يندر سقوط الأمطار بهذه المنطقة، وقد لا تسقط كلية لفترات تمتد لنحو عشر سنوات متصلة . وهو ما يفسر لماذا تجنبت القبائل المحلية ذاتها التوغل فى أرجائها . ولقد أدرك ابن سعود رحمه الله هذا البعد الحمائى للطبيعة الجغرافية لبلاده عندما قال : " سوف تظل مملكتى

طالما بقيت البلاد صعبة الوصول إليها حينما لا يكون للأجنبى أى هدف يمكنه تحقيقه سوى تركها " .

حكمة إلهية أخرى تبدت ملامحها فى أن عدد سكان المملكة العربية السعودية لا يتعدى ما بين ١٢ و ١٥ مليون نسمة مما يجعلها قبلة للرزق ولقمة للعيش لملايين البشر من الجنسيات الأخرى .

ومنذ تمكن عبد العزيز آل سعود من إقامة المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢، وهى تسير على نهج الدولة الإسلامية كما عرفها القرن السابع الميلادى من حيث اتخاذ القرآن الكريم دستوراً والشريعة الإسلامية مصدراً لكل القوانين والتنظيمات .

وفى عام ١٩٨٠، قام الأمير فهد بتشكيل لجنة وزارية مصغرة إلى جانب بعض القادة الدينيين والقضاة . قامت هذه اللجنة الوزارية تحت إشراف شقيقه الأمير نايف . وزير الداخلية . بوضع نظام أساسى للحكم. وأعدت صيغة لقيام مجلس استشارى . ويمكن القول بأن نظام الحكم فى السعودية يقوم على أساس من المبادئ الإسلامية .

تلك المبادئ التى يقول الملك فيصل : أنها تغنى عن استيراد التقاليد الأجنبية حينما قال فى عام ١٩٦٣ " لسنا بحاجة إلى استيراد التقاليد الأجنبية، حيث إن لدينا تاريخ وماضى مجيد، وقد قدنا العالم بكتاب الله وسنة رسوله ".

وإذا كان ثمة تعاون قائم بين العرب والمملكة العربية السعودية فإن ذلك له مبرراته، فمن ناحية يعتبر هذا التعاون ضرورة تمليها الاعتبارات والسياسات الدولية القائمة، إذ ليس ثمة مانع من استفادة المملكة من تكنولوجيا العرب المتقدمة مع الاحتفاظ بطابعها الإسلامى العريق، ومن ناحية أخرى فقد كان هذا التعاون خلال حقبة كرونولوجية معينة بمثابة اللجام الكابح للقوى الشيوعية من اختراق حصون العالم الإسلامى عامة، والمنطقة العربية الإسلامية خاصة ...

والأمر الذى لاشك فيه أنه ما من دولة عربية ـ باستثناء مصر ـ أظهرت صلابة تجاه الكيان الصهيونى مثلما فعلته المملكة العربية السعودية، بل والأهم من ذلك إن هذه الصلابة اتخذت منهاجية حركية عملية على خلاف ما فعله الكثير من الدول الأخرى .

كذلك كان التركيز على البعد الإسلامى فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى من أهم المجهودات المحمودة التى بذلتها المملكة فى هذا الصدد إذ بعد احتلال القدس فى عام ١٩٦٧ أصبحت المملكة فى مقدمة الائتلاف المعادى لإسرائيل .

وفى عام ١٩٦٩ نجحت الجهود السعودية فى أعقاب إحراق المسجد الأقصى فى الدعوة لعقد أول مؤتمر إسلامى عقد بمدينة الرباط بالمغرب . فضلاً عن هذا وذاك، تحدث الملك فيصل مراراً

وتكراراً عن رغبته فى الصلاة بالمسجد الأقصى . وفى أعقاب اغتياله فى عام ١٩٧٥، استمر خلفاؤه فى محاولتهم لتعبئة كافة القوى الإسلامية والعربية وراء هذا الهدف، ومن ثم وراء السياسة السعودية. كذلك فقد اغتنمت القيادة السعودية فرصة الحج السنوى إلى مكة فى التأكيد على " استعادة المسجد الأقصى، ثالث الحرمين والقدس نفسها وتطهيرها من كل دنس " على حد تعبير الملك خالد فى عام ١٩٧٧ ، وفى تأكيده على البعد الإسلامى للصراع مع إسرائيل عبر وزير الخارجية السعودى فى مايو ١٩٧٧ عن معارضته للمحاولة الإسرائيلية الرامية إلى تحويل " مشكلة القدس من مشكلة دينية إلى مشكلة سياسية " . أكثر من ذلك، ينظر الكثير من المسئولين السعوديين . كما يتضح من تصريحاتهم . إلى الجهاد باعتباره الوسيلة الوحيدة لمواجهة إسرائيل، وإن كانت تشير فى ذات الوقت إلى أن الجهاد لا يعنى بالضرورة شن الحرب، بل تعبئة كافة الموارد والجهود سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً وعسكرياً .

كذلك ما من دولة عربية أو إسلامية تصدت للشيوعية وفضحت طبيعتها الإلحادية مثلما فعلت المملكة العربية السعودية .. كما كان للمملكة العربية السعودية السبق فى شن هجوماً قوياً على تدخل القوات السوفيتية فى أفغانستان فى أواخر عام ١٩٧٩ وكشف ما به المستترة ... حيث حذر وزير البترول السعودى آنذاك . الشيخ اليمانى بأن الدافع الرئيسى " للسوفييت هو حقول البترول

والاحتياجات السوفيتية المستقبلية منه " وعلى نفس الوتيرة صرح سعود الفيصل وزير الخارجية بأن الوجود السوفيتى بالقرب من مضيق هرمز ما هو إلا "خطوة نحو منابع البترول فى الخليج ".

أيضاً دعت المملكة فى الأول من يناير ١٩٨٠ إلى اجتماع لرؤساء الدول لوضع استراتيجية عامة " لمواجهة التهديد السوفيتى ... والموجه مباشرة ضد الدين الإسلامى " والحقيقة أن القادة السعوديون لعبوا دوراً بارزاً فى الدعوة لانعقاد المؤتمر الإسلامى بإسلام أباد فى باكستان فى أواخر يناير ١٩٨٠ .. وفى خطابه أمام المؤتمر، وصف الأمير سعود الفيصل التدخل السوفيتى فى أفغانستان على أنه " تحد سافر للعالم الإسلامى وعدم اعتبار للإسلام والمسلمين " والجدير بالذكر أن المؤتمر انتهى بتبنى وجهة النظر السعودية، وأدان " العدوان العسكرى السوفيتى على الشعب الأفغانى " كما دعى إلى الانسحاب الفورى وغير المشروط لكافة القوات السوفيتية من الأراضى الأفغانية " وطالب السوفييت بإيقاف أعمال القمع والطغيان ضد الشعب الأفغانى وأبنائه المجاهدين " أكثر من ذلك، قام المؤتمر بتجميد عضوية أفغانستان فى منظمة المؤتمر الإسلامى ودعى إلى عدم الاعتراف بالحكومة القائمة وقطع العلاقات الدبلوماسية مع " النظام غير الشرعى فى أفغانستان "، مؤكداً " تضامنه مع الشعب الأفغانى فى كفاحه العادل لحماية معتقداته واستقلاله الوطنى وسلامة أراضيه ". كما حث على التضامن التام

لكافة الشعوب الإسلامية المجاورة لأفغانستان وإسهام الدول والمنظمات والأفراد فى دعم المجاهدين الأفغان وعدم الاشتراك فى الدورة الأوليمبية والتى تقرر قيامها بموسكو فى يوليو ١٩٨٠.

ورغم رد الفعل الإيجابى الذى اتخذه الاتحاد السوفيتى بإزاء الغزو العراقى للكويت (١٩٩٠-١٩٩١) وما أبداه من تأييد لقرارات مجلس الأمن بشأن الأزمة، فقد ظلت السياسة السعودية تجاه الاتحاد السوفيتى دون تغيير؛ خاصة فيما يتعلق بالمساس بالعقيدة الإسلامية والقيم الروحية التى يعول عليها الإسلام فى مواجهة التيار الإلحادى السوفيتى .

الملف السرى لملوك وأمراء سعوديون

بـادئ ذى بدء، فإنـه لا يعرف أحـد على وجه التحديـد عـدد أفـراد الأسـرة الملكيـة السـعودية مـن الذكـور، وإن كـانت أحـدث الإحصائيات تشير إلى أن هذا العدد يتراوح مـا بين أربعة وخمسة آلاف وتربطهم علاقات متينة سواء ببعضهم البعض أو بغيرهم مـن القبائل، ويضعون نصب أعينهم هدفاً سامياً، يتمثل فى حماية حمى الإسلام والزود عنه والمحافظة على قدسيته ومقدساته.

وقد كـان خير مـا استهلت بـه هـذه الأسـرة حكمها للمملكة العربيـة السـعودية هـو، الملك عبـد العزيـز آل سـعود، أبـو التـاريخ السعودى، الملك عبد العزيز هو الشخصية التاريخية التى يرجع إليها الفضل فـى بنـاء الدولـة السعودية بمفهومها الحديـث، فعلـى يديـه أصبحت المملكـة تمتـد مـن الخليـج العربـى شرقاً إلى البحـر الأحمر غرباً، ومن الكويت وأجزاء من العراق شمالاً إلى جبال اليمن جنوباً.

وخلال الخمسين عاماً التى حكم فيها البلاد، أثبت جلالة الملك عبد العزيز بن سعود أنه أعظم حاكم حكم الجزيرة العربية منذ النبى محمد ﷺ نفسه. فقد سعى بين القرى والمدن الصغيرة بوعده بإحلال الاستقرار، واستطاع إخضاع البدو الشرسين بما تحلى به من الجمع بين النقاء الدينى والحكم الأبوى والقبضة القوية. وقام وحده تقريباً بتأسيس الدولة الوحيدة التى عرفها هذا الجـزء مـن شبه

الجزيرة العربية آنذاك. وكانت دولة اتحدت فيها الطبيعة الجغرافية الجرداء الواسعة والتاريخ الذى لم يدنسه الأجنبى تقريباً والحكومة التى زاوجت بين السلطة العملية والدينية ، ليكون منها دولة منفردة بين الدول العربية .

كذلك كان للملك عبد العزيز الفضل فى تنقية الدولة الوليدة من شوائب الانتماءات القبلية والانقسامات الاجتماعية ... وفى هذا السياق، نعنى سياق المحافظة على وحدة وسلامة الأراضى السعودية، تواضع جلالته كعادته دوماً . واقترن بعلاقات مصاهرة ونسب مع قبائل الصديرى وابن جلاوى وشامار بما لهذه القبائل من مكانة وقوة، وذلك حتى تستقر الأمور ويضمن الولاء ويتفرغ لبناء دولته .

ومن الطريف أن التقديرات تشير إلى أن عدد زوجات الملك عبد العزيز قد بلغن خمسة عشر زوجة، وأن أنجاله قد بلغوا ما بين سبعة وثلاثين وخمسة وأربعين ابناً ومائة وخمسين حفيداً، وخمسمائة من أبناء الأحفاد .

فإذا أخذنا بالاعتبار أن أخوته العشرة من الذكور قد أنجبوا عدداً مقارناً لذلك من الذرية لأمكن القول بدون مبالغة أن غالبية سكان المملكة العربية السعودية ينتمون لأسرة آل سعود .

ومن الأمور التى لا ينكرها إلا حاقد أن الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ اشتهر بكرمه وجزيل عطائه، وأنه لم يحرم طالباً حاجة

قط، كما عرف بطلعته البهية ورجاحة عقله وفكره، كذلك فقد كان من الخير، كل الخير الذى شهدته المملكة العربية السعودية سواء فى عهده أو بعد رحيله مقترناً بوجوده، ففى عهده ظهر النفط بما كان له من تأثير سحرى على اقتصاد المنطقة، وفى عهده عم الرخاء جميع أنحاء المملكة، وهكذا كان الملك عبد العزيز خير استهلال لحكم الأسرة السعودية للملكة العربية السعودية، وأرض الحرمين الشريفين .

وبعد وفاة عبد العزيز تم الاتفاق على اختيار أكبر أبنائه سعود الذى لم يكن يتمتع بنفس القدر من الجاذبية الشخصية والحنكة الإدارية التى كان والده يتمتع بها .

كما تخلى عن الحياة المتواضعة التى كان يحياها والده الملك عبد العزيز، وعاش حياة مترفة، كما يتردد عنه أنه كان رجل يهيم بالفاتنات من النساء، ويعشق صحبة أهل النعيم .

ونظراً للتقاليد السعودية الإسلامية الأصيلة لم يوافقه أحد على هذه الوضعية، ومن ثم أقام أهل الحل والعقد مجلساً للوصاية على العرش برئاسة الأمير فيصل، وبعد ست سنوات من الخلاف أصدر العلماء فتوى أعلنوا فيها عدم أهلية سعود للحكم، وفى أول نوفمبر عام ١٩٦٤ تنحى سعود نهائياً، وترك المملكة تاركاً للملك فيصل ـ الذى تولى من بعده ـ تركة ثقيلة من الديون والهموم التى كانت قد بدأت تتفاقم على المملكة .

وفى عـهد الملـك فيصـل شـهدت المملكـة العربيـة السـعودية سيمفونية تاريخية وحضارية رائعة سواء علـى الصعيد الداخلى أو الإقليمى أو الدولى .

وبغض النظر عما كـان قائماً من خلافات بين الرئيس عبـد الناصر ومناصرى القومية العربية من ناحية، والملك فيصل من ناحية أخرى، تلك الخلافات التى اتخذت زخمها الحقيقى فى حرب اليمن، بغض النظر عن ذلك؛ كفى الملك فيصل فخراً أنه بعد الهزيمـة المريرة التى تعرضت لها الجيوش العربية فى حرب ١٩٦٧ كان بمثابة الذراع اليمنى للرئيس السـادات فـى معركـة النضـال والشـرف عـام ١٩٧٣، والأب الروحى لفكرة التخلص من النفوذ الشيوعى بالمنطقـة، حيث وضع الملك فيصل يداً بيد مع الرئيس السادات خطة شن الحـرب، كما أنه مقابل قيام الرئيس السادات بطرد الروس من مصر فى شهر يوليو ١٩٧٢ قام الملك فيصل، بالإضافة إلى الإعانة السعودية السنوية لمصر، والتى كانت تبلغ مـائتين وخمسين مليون دولار، قام بجمـع مـا يقرب من خمسمائة مليون دولار أخرى من دول الخليـج الأخرى من أجـل شـراء الأسـلحة لمصـر، وكذلـك مـا يـتراوح مـا بـين أربعمائـة وخمسمائة مليون دولار من أجل تدعيم ميزان المدفوعات ...

كما أسرع الملك فيصل بالتوجه إلى القـاهرة فى صيف ١٩٧٣ ليؤكد تعهده بأن المملكة العربيـة السعودية سـتفرض حظـراً بتروليـاً

على الدول المؤيدة لإسرائيل إذا قامت مصر بمهاجمة إسرائيل فى الأراضى التى احتلتها فى حرب ١٩٦٧ .

وبعد مرور يومين على اندلاع حرب أكتوبر، كانت القاهرة والرياض مرتبطتين بخط تليفونى مباشر. ونظراً لأنه لم تكن ثمة مخاطر مماثلة لحيلة عبد الناصر بعدم إبلاغ الملك حسين بأى شئ عن الموقف العسكرى فى عام ١٩٦٧، كان السعوديون يتمتعون بحرية الوصول إلى المخابرات المصرية ويراقبون سير الحرب من أرض القاهرة .

وفى الأسبوع الثانى من الحرب، أبلغوا الملك فيصل أن الجيوش العربية بدأت تخسر ما أحرزته من مكاسب فى الأيام الأولى. وفى التاسع عشر من أكتوبر طالب نيكسون، الذى كان ينظر إلى الحرب من خلال منظور التنافس الأمريكى - السوفيتى فقط - الكونجرس بتخصيص ٢ر٢ بليون دولار كمساعدة عسكرية لإسرائيل .

وفجأة واجه الملك فيصل الخطر المحقق بأن تتعرض المملكة العربية السعودية للعزلة فى بحر الغضب العربى الذى أشعله الدعم الأمريكى لإسرائيل . وفى اليوم التالى استل الملك فيصل سلاح البترول من غمده، وتوقف عن ضخ الستمائة برميل من النفط التى كان يرسلها يومياً للمساعدة فى تغذية الاقتصاد الأمريكى بالوقود .. وسرعان ما التفت صفوف السيارات كالثعابين العملاقة حول

مضخات الوقود. ودفعت أسعار البترول - التى ارتفعت ارتفاعاً كبيراً - الاقتصاد الأمريكى إلى حافة الخطر.

ووجه الرئيس نيكسون الذى أصابه الهياج تحذيراً فى أحد المؤتمرات التى عقدها أنصار البيئة قائلاً : " إذا تجمد المرء حتى الموت، فليس ثمة فرق أن يكون الهواء نقياً أو ملوثاً " .

واستمر الحظر حتى مطلع العام الجديد، وقفزت أسعار البترول من ٣.٠١ دولار للبرميل قبل الحرب إلى ١١.٦٥ . بينما تعهدت الدول العربية المنتجة للبترول بمواصلة فرض الحظر إلى أن يتوقف الدعم الغربى لإسرائيل.

وهكذا كان الملك فيصل هو الزعيم العربى الوحيد الذى حاز ثقة كل من الرئيس السادات والرئيس الأسد لإخباره بالموعد المحدد لشن الهجوم المصرى - السورى ضد إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وهكذا أيضاً.. خلال هذه الحرب نجحت السعودية فى التغلب على ترددها السابق فى استخدام سلاح البترول ضد الولايات المتحدة وكان لموقفها الدور الحاسم فى قرار الحظر البترولى . وفى أعقاب الحرب، قام محور القاهرة - الرياض - اعتماداً على القوة العسكرية والبشرية لمصر والقوة المالية للسعودية - بهدف الحيلولة دون قيام فكر ثورى أو ممارسات تهدد الوضع القائم وتطلب قيام المحور ضرورة بناء قوة عسكرية جاءت فى شكل الهيئة العربية للتصنيع، والتى

جمعت بين الأموال الخليجية والقدرات الإنتاجية لمصر وحتى عندما سار السادات فى دبلوماسيته المنفردة ووقع على اتفاقية فض الاشتباك الثانية مع إسرائيل فى عام ١٩٧٥ استطاعت السعودية تحقيق المصالحة بين كل من مصر وسوريا . ومن ثم نجحت فى تجنب استقطاب فى العالم العربى . غير أنه مع استمرار السادات فى دبلوماسيته المنفردة وبلغ به الأمر حد الاعتراف بإسرائيل وجدت السعودية مخاطرة كبيرة فى الارتباط بسياسته.

وفى ٢٥ مارس ١٩٧٥ سقط الملك فيصل صريع رصاص الغدر. وخلفه الملك خالد رابع أبناء الملك عبد العزيز وكان الملك خالد لا يتمتع بنفس مكانة الملك فيصل، بيد أن سلوكه الورع وعائدات المملكة العربية السعودية السنوية من النفط، والتى كانت تُقدر بسبعة وثلاثين بليون دولار جعلت منه إدارياً فعالاً للإسلام البطولى، ورغم المبالغ الطائلة التى وزعتها المملكة باسم الإسلام، سواء ذهبت للعرب أو لغيرهم من وحدات العالم الإسلامى، فقد شهدت المملكة خلال الفترة التى حكم فيها الملك خالد العديد من العواصف والمسائل الشائكة، كان فى مقدمتها الموقف السعودى بإزاء عملية السلام مع إسرائيل، إذ ترددت شائعات مضارها حدوث اختلافات وصلت إلى الاقتتال داخل جدران البيت الملكى من جراء الخلاف على اتخاذ موقف محدد بشأن عملية السلام، فمن ناحية كان القلق يسود من أن رفض عملية السلام قد يؤدى إلى تأزم العلاقات الأمريكية .

السعودية، ومن ناحية أخرى كان السير فى ركب عملية السلام يعنى الانعزال عن الدول العربية التى احتشدت ضد مصر.. وفى النهاية قرر الملك خالد وكبار الأمراء أنه من الأفضل للمملكة العربية أن تواجه غضب الولايات المتحدة على أن تخاطر بالخروج من الحظيرة العربية.

ثم كان التحدى الخطير من على الجانب الآخر للخليج العربى، حيث سقط نظام الشاه فى إيران وسيطر الخومينى على مقاليد الحكم هناك، ثم بدأ يشن غاراته على دول الجوار بهدف ظاهرى مزعوم أسماه تصدير الثورة الإسلامية.

فأولاً، وجهت نداءات متكررة من قبل حكام طهران للإطاحة بمقومات المملكة، ارتبطت بها حملات دعائية بين الشيعة فى منطقة الإحساء السعودية وبين الحجيج فى مكة. وثانياً رأى السعوديون فى الموقف الثورى الإيرانى حالة من عدم التيقن المتزايد والذى لا يمكن الاستهانة بها فيما يتعلق بأمن الخليج بصفة عامة ومضيق هرمز بصفة خاصة. وثالثاً كانت هناك تهديدات إيرانية ضد بعض إمارات الخليج اعتبرتها السعودية مناطق ضعف، وفوق كل ذلك كان هناك أحياء للإدعاء الإيرانى بتبعية البحرين لها على أسس تاريخية ودينية.

ومع اندلاع الحرب بين إيران والعراق فى سبتمبر ١٩٨٠، كان من الصعب على السعوديين الاختيار بين نظامين راديكاليين، وتمسكوا بدلاً من ذلك بمبدأ التضامن الإسلامى . فأكد الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية فى لقاء له بنيويورك فى ٥ أكتوبر ١٩٨٠ موقف بلاده غير المنحاز بالنسبة للحرب العراقية . الإيرانية . وأصر على " ضرورة إنهاء الصراع بين الدولتين المسلمتين الشقيقتين فى أسرع وقت ممكن قائلاً : إنه ليس صراعاً يمكننا فيه أن نؤيد جانباً ضد آخر لنحصل على ميزة ما ... إنه صراع يتقاتل فيه الأشقاء" .

وحتى رحيل الملك خالد كانت المملكة تتحسس الوسائل لصد إيران ودرء مطامعها الإقليمية لا سيما الخليجية منها، الأمر الذى بدا ماثلاً بوضوح فى تأسيس مجلس التعاون الخليجى فى شهر مايو ١٩٨١ تحت الرعاية السعودية .

وبعد وفاة الملك خالد بايعت الأسرة السعودية ولى العهد فهد بن عبد العزيز آل سعود على البلاد، والأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ولياً للعهد، وذلك فى الثالث عشر من يونيو ١٩٨٢، وفى اليوم نفسه أصدر الملك فهد قراراً بتعيين الأمير عبد الله رئيساً لمجلس الوزراء، ورئيساً للحرس الوطنى، والأمير سلطان بن عبد العزيز وزيراً للدفاع والطيران المدنى، والمفتش العام، ونائباً لرئيس مجلس الوزراء.

ومع قيادة الملك فهد انتقلت البلاد إلى مرحلة مختلفة تماماً، حيث حدث تطوير كبير فى مختلف المجالات . وكان أحد معالم ذلك التطوير هو إعادة تنظيم أسلوب الحكم فى البلاد، وتمثل ذلك فى إصداره أربعة أنظمة جديدة هى :

- النظام الأساسى للحكم
- نظام مجلس الشورى
- نظام المناطق
- نظام مجلس الوزراء

وكان ذلك فى الأول من مارس عام ١٩٩٢، ومن خلال هذه الأنظمة أصبح تشكيل السلطتين التنظيمية والتنفيذية مقيداً بفترة زمنية محددة يتم بعدها التجديد أو التعيين، وذلك كل أربع سنوات، وبهذه الأنظمة كانت السعودية من أوائل دول مجلس التعاون الخليجى، التى اتجهت إلى تدعيم مبدأ المشاركة فى الحكم، وذلك من أجل الاستفادة من الكفاءات الوطنية .

وتدخل المملكة العربية السعودية عالم القرن الحادى والعشرين برصيد ضخم، وفى مجالات مختلفة، حيث تضاعف حجم الناتج المحلى الإجمالى غير النفطى أكثر من ٤ مرات خلال الأعوام

من ٧٠-١٩٩٥، وبمعدل نمو سنوى قدره ٦٪، وارتفعت قيمة الصادرات السلعية غير النفطية من ٢٨ مليون ريال إلى ١٥,٤ بليون ريال، وارتفع حجم الاستثمارات السنوى للقطاع الخاص من ألف مليون ريال إلى حوالى ٤٦ ألف مليون ريال واحتلت المملكة المرتبة ٢٦ فى قائمة الدول المصدرة للسلع عام ١٩٩٥، وأصبحت صادراتها تسوق فى ٩٠ دولة، وبلغ عدد المصانع فيها أكثر من ٢٥٠٠ مصنع يعمل بها أكثر من ٢١٨ ألف عامل.

وقد استطاعت المملكة العربية السعودية تحقيق الاكتفاء الذاتى من المحاصيل الزراعية، خاصة القمح والتمور، وزادت المساحة الزراعية من ٦٠٠ ألف هكتار عام ١٩٨٠ إلى ١.٧ مليون هكتار عام ١٩٩٥.

كما أحدثت المملكة طفرة هائلة فى التعليم، حيث تضاعف عدد الطلاب خلال ٢٥ عاماً بمعدل ٧ مرات، بمعدل سنوى ٧,٩٪ وارتفع عدد المدارس من ٣٢٨٣ مدرسة عام ١٩٧٠ إلى ٣٢ ألف مدرسة عام ١٩٩٦، وبلغ عدد الطلاب حوالى ٤,٥ مليون إلى جانب الدارسين فى الجامعات والمعاهد العليا والتعليم الفنى الذين يصل عددهم إلى ٣٠٠ ألف طالب.

وفى المجال الصحى بلغ عدد المستشفيات ٢٨٥ مستشفى عام ١٩٩٦، منها ١٧٧ تابعة لوزارة الصحة، وعدد ٢٣١٥ مركزاً للرعاية الصحية .

هذه نماذج توضح حجم التطور الهائل الذى لحق بالمملكة، خاصة خلال العقدين الأخيرين .

وعلى مستوى السياسة الخارجية، فقد اتبعت المملكة أسلوباً متوازناً، مكنها من نسج مداخلات قوية مع جميع دول العالم، خاصة أوروبا وأمريكا.

أما على مستوى علاقاتها العربية، فقد أسهمت المملكة بجهد رئيسى فى إنشاء مجلس التعاون الخليجى عام ١٩٨١، الذى قطع شوطاً كبيراً فى مجال تدعيم العلاقات المشتركة بين أعضائه .

وكانت للسعودية علاقات متميزة دائماً مع مصر، وتدعمت هذه العلاقات بشكل كبير خلال العشرين عاماً الماضية، أى منذ تولى الرئيس مبارك والملك فهد، حيث إن الاستثمارات السعودية فى مصر حالياً تمثل نحو ٤٠٪ من جملة الاستثمارات العربية فى مصر، ويقدر حجم المشاريع التى تسهم فيها السعودية فى مصر بأكثر من ٤٠٠ مشروع، وتزيد الاستثمارات السعودية فى مصر حالياً على ١٠

مليارات جنيه مصري، بعد أن كانت قيمة هذه الاستثمارات تبلغ ٤ مليارات فقط عام ١٩٩١.

كذلك كان للملك فهد دور كبير في خدمة القضايا الإسلامية وتوفير الدعم المادى والمعنوى لها فى شتى أنحاء الدنيا ...

أيضاً كان للملك فهد أسلوبه الجاد والمحنك فى التعامل مع القضايا التى فرضت نفسها على المملكة من الخارج .

إذ إيماناً منه بالحظر الإيرانى المحموم ليس على المملكة وحدها، بل على المنطقة بأسرها، قام بدعم الرئيس العراقى صدام حسين فى حربه مع إيران لاسيما بعد أحداث الشغب الذى شهده الحرم المكى والتى قام بها الحجاج الإيرانيون ١٩٨٧، والتى راح ضحيتها حوالى ٤٠٠ شخص، وانتهت بقطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران والمملكة .

ولكن مع الأسف الشديد وبعد أن وضعت الحرب العراقية ـ الإيرانية أوزارها، وتحديداً فى أغسطس ١٩٩١ اجتاحت القوات العراقية الأراضى الكويتية، واقترب التهديد من المملكة العربية السعودية، الأمر الذى جعلها تقف موقفاً حاسماً بجانب قوات التحالف الدولى التى خلصت الكويت من براثن الوحش العراقى ...

أما فيما يتعلق بقضية الخلاف حول ترسيم الحدود السعودية ـ اليمنية فإنه يتصاعد ويهبط بين الحين والآخر.

وإن كانت المملكة تحت راية الملك فهد حريصة كل الحرص على عدم تدخل أطراف خارجية قد تفسد مسعى المصالحة بينها وبين شقيقتها العربية اليمن.

الفصل الثاني

آل الصباح

كان الله فى عون إخواننا الكويتيين

هذه هى أفضل مقدمة يمكن أن نستهل بها حديثنا عن الكويت شعباً وحكومة وعلاقات، إذ ما زال حادث الغزو العراقى للكويت يمثل جرحاً غائراً فى نفسية أي كويتى حتى الآن، ومن الصعوبة بمكان القول بأن هذا الجرح سوف يشفى فى الأجل القصير.

وقد كانت لهذا الجرح آثاره سواء على المستوى الداخلى أو على مستوى شبكة علاقات الكويت الخارجية العربية منها وغير العربية على حد سواء ..

إذ قبل الغزو العراقى للكويت، كانت الكويت تعيش حالة من الانتعاش الاقتصادى المشهور، وتحوز رضاء كل من أشقائها العرب، والدول غير العربية بغض النظر عن المطامع والمطامح التى كانت تصبو إليها هذه الأخيرة .

ولكن بعد الغزو، وانفراج الأزمة، وزحزحة القوات العراقية عن الأراضى الكويتية على أيدى قوات التحالف الدولى، التى كانت تتزعمها الولايات المتحدة تبدلت الأحوال بصورة غريبة .

فعلى الصعيد الداخلى، دبت الخلافات السياسية حول العديد من القضايا منها ما يتعلق بالدستور، ومنها ما يتعلق بطبيعة العلاقة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، ومنها ما يتعلق بالأمن

الداخلي، ومنها ما يتعلق بإدارة العجلة الاقتصادية، ومنها ما يتعلق بالحرية السياسية ذاتها .

ولكن الشيء الملفت للانتباه حقاً إن جل، إن لم يكن كل هذه الخلافات السياسية تدور رحاها بين أفراد بارزين من أسرة آل صباح أنفسهم، وهي ظاهرة ليست سلبية على الإطلاق، كما قد يخيل إلى البعض، بل هي ظاهرة صحية لسبب أساسي مفاده : أن الاختلاف في الرؤى السياسية هو أساس الديموقراطية بمفهومها الحديث، ولا ينتقص على الإطلاق من قدرها ولا أحد يستطيع إنكار ثراء التجربة الديموقراطية الكويتية وعراقتها بالمقارنة بالديموقراطية المزعومة التي تتشدق بها العديد من الدول الأخرى على مستوى العالم

إذ أن ثمة دستور قائم، وثمة مؤسسات سياسية فعالة موجودة، وثمة معارضة سياسية مؤثرة وإن كانت المعارضة الكويتية تختلف طبيعتها عما هو متعارف عليه في النظم الحزبية، وهي كلها أمور تشهد بانفتاحية العملية السياسية الكويتية، ومصداقية أسرة آل صباح ابتداء من الشيخ جابر، وحتى أصغر مولود.

أما إذا كانت هناك خلافات لم يتم حسمها بعد، فهي ضريبة الديموقراطية إذ ليس من المعقول القول بأنه كان لزاماً على الكويتيين الوصول إلى تجربتهم الديموقراطية إلى أبعد حد، وهم لا

زالوا غارقين فى مأساة الغزو العراقى وآثارها، كما أن العملية الديموقراطية بمفهومها الشامل تحتاج إلى مران طويل وتثقيف دءوب، وأنها لا يمكن أن تتقن بين ليلة وضحاها، المهم أن الأطر الديموقراطية موجودة، والإرادة تتجه بتحقيق أقصى درجات الديموقراطية، والشعب الكويتى قانع بديموقراطيته، والقيادة لا تدع جهداً من أجل ترسيخ تلك الديموقراطية رغبة فى بناء كويت جديدة كويت ما بعد الغزو...

أما فيما يتعلق بالعلاقات الكويتية ـ العربية فلا تزال متأثرة إلى حد كبير بالموقف الذى اتخذته الدول العربية، كل على حدة، بإزاء الغزو العراقى، إذ لا يزال الكويتيون يضعون نصب أعينهم أن هناك دول " ضد " مشيرين بذلك إلى مجموعة الدول العربية التى لم تتخذ موقف الرفض تجاه الغزو العراقى للكويت أو حتى تلك التى باركته علانية، وأن هناك دول " مع " ... وهى تلك الدول العربية التى أدانت الغزو العراقى للكويت، وكانت ضمن جملة الدول التى تصدت له قولاً وفعلاً .. بيد أننا نعتقد أنها فترة موقوفة، ستنتهى حينما يستشعر الكويتيون أنهم آمنون داخل حدودهم، بل وأن هناك تقارب ـ وإن كان حذراً ـ قد تم بين الكويت، وبعض تلك الدول المصنفة فى دول الضد .

وبخصوص علاقات الكويت مع الدول غير العربية، فهى فى الغالب علاقات جيدة، وإذا كان العديد من المحللين والباحثين

يشيرون بكل أسى ومرارة الدور الذى تمارسه الولايات المتحدة، من أجل امتصاص خيرات الكويت، وإشباع مطامعها هناك تحت دعاوى حماية الأراضى والموارد الكويتية، فإن الكويتيين قيادة وحكومة وشعباً يعرفون ويفهمون ذلك جيداً .. إذ لن ينسى الكويتيون على الإطلاق أنهم حينما طالبوا الولايات المتحدة والغرب بالدفاع عنهم قد سمعوا كلاماً ساخراً ومقذذاً فى حقهم فى واشنطن حيث إن الجنود الأمريكيين سوف يموتون دفاعاً عن مشيخة ليس فيها إلا النفط وسكان من البدو الأغنياء ونظام أسرى، ومجتمع ليس فيه شئ من الديموقراطية .

ولا أظن بأى حال من الأحوال رضاء الكويتيين عن مثل هذا التجريح بل إن أحد أسباب بعض الخلافات السياسية القائمة يتمثل فيما وصل إليه التبجح الأمريكى حينما حاولوا بيع صفقة أسلحة من مخلفات تحرير الكويت للكويت بعد ترميمها وإصلاحها .

باختصار، يدرك الكويتيون - كما يدرك كل العرب - أن الأمريكيين يستغلونهم ، ويريدون استمرار ذلك الوضع إلى الأبد، ولكنه الثمن الباهظ الذى تدفعه الكويت مقابل تحريرها من الغزو العراقى، والعصا الأمريكية الغليظة التى لا يقوى على التصدى لها أحد .

وإذا تطرقنا إلى الحديث عن الشخصيات الفعالة على الساحة الكويتية لاحتاج الأمر منا إلى عشرات الكتب، ولذا فإننا سوف ننتقي ثلاث شخصيات لها حضور مؤثر جداً على الساحة الكويتية ... علماً بأننا لم نتجاهل على الإطلاق الشيخ جابر الصباح لكونه :

- يحتاج وحده إلى مجلدات
- لا أحد يجهله أو يجهل إنجازاته، وما قدمه للكويت من نهضة علمية، وثقافية، وحضارية، واقتصادية، بل وسياسية أيضاً بوصفه صاحب أعظم تجربة ديموقراطية عرفها الكويتيون
- رفعة مقامه الذى يدفعنا الخجل من أن نفردها على عدد محدود من الصفحات أو نصيغها على عدد محدود من السطور

✪ الشيخ سعد العبد الله الصباح ... السياسة ثانياً :

كل شئ قابل للاختلاف حوله فى الكويت، من رصف شارع فى منطقة نائية إلى تشكيل الحكومة ذاته، بل وأحياناً إلى إسناد رئاسة الوزراء إلى الشيخ سعد، إلا أن الملفت أن حجم هذه الخلافات المتفاقمة لم يؤثر فى أن يتفق الجميع على الإشادة بما يسمونه بالروح الأبوية التى يتمتع بها ولى العهد الكويتى الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح والذى ظل حاضراً فى الواقع السياسى الكويتى وتحت الأضواء اللامعة طيلة الأربعة عقود الماضية، بل وكان جزءاً مهماً فى عملية تأسيس الدولة الحديثة .

ولا دليل على هذا الإجماع فى المحبة، وإن اختلف تقييم الأداء السياسى، أكثر من ذلك الاستقبال الشعبى الحاشد الذى جاء ليرحب به بعد عودته من رحلة علاجية، إذ خرج الآلاف إلى مطار الكويت وغصت طرقات موكبه بالمستقبلين، بل وعمد أمير الكويت ذاته إلى كسر البروتوكول الاعتيادى ليستقبله فى المطار فى واحدة من صور التلاحم الأسرى الكويتى المشهودة.

هذه الروح الأبوية ربما، هى التى أسهمت فى أن تكون منفذاً لانتقاد المسار الحكومى فى عهد رئاسته للوزارة، والتى استمرت منذ عام ١٩٧٨ وشكل خلالها إحدى عشر وزارة بعد إعادة انتخاب البرلمان

مجدداً . إذ كانت هذه الروح هى التى تدفع فى كثير من الأحيان الشيخ سعد إلى تقديم الاعتبارات الاجتماعية والإنسانية على السياسية ليبدو ذلك وكأنه تردد فى الحسم أو ضعف فى القرار.

وكثيراً ما عمد أصحاب المظالم إلى الاتجاه مباشرة إلى الشيخ سعد لمعرفتهم التامة بأنه سيعطيهم الحل حتى لو كان على حساب قرار اتخذ بالفعل.

ولا ينفصل الشيخ سعد عن مواطنيه، إذ يجلس فى ديوانه كل يوم أحد ليستقبل الزوار، كما لا ينقطع هو عن التواصل معهم فى أماكن تجمعهم على طول الكويت وعرضها، والمشاركة فى أحيان كثيرة فى حفلات الأفراح أو مجالس العزاء.

والشيخ سعد من مواليد عام ١٩٣٠ وهو الابن الأكبر لأمير الكويت السابق الشيخ عبد الله السالم والذى يلقب فى الكويت بـ " أبى الدستور" إذ صحح فى عهده المسار الديمقراطى للكويت وأنجز الدستور الكويتى . ودرس الشيخ سعد فى الكويت ثم اتجه إلى إنجلترا فى عام ١٩٥١ ليلتحق بكلية هاندن العسكرية ثم ليعقب ذلك دورات متخصصة فى شئون الأمن والشرطة حتى عام ١٩٥٤ .

وفى عام ١٩٥٩ عين نائباً لرئيس الشرطة بعد تدرجه فى عدة مناصب بجهاز الشرطة والأمن العام، وفى يناير (كانون الثانى) ١٩٦٢ عين وزيراً للداخلية، وبحكم منصبه فى الحكومة شارك فى لجنة صياغة الدستور الكويتى، وكان عضواً فاعلاً فى إنجازه بالمناقشات والنقاط التى كان يثيرها مع أعضاء اللجنة. وجمع فى عام ١٩٦٤ حقيبتى الداخلية والدفاع إلى أن اختير لولاية العهد فى يناير (كانون الثانى) عام ١٩٨٧، وتولى رئاسة الوزراء فى فبراير (شباط) من العام ذاته وحتى الآن، كما يترأس بحكم منصبه عدداً من المجالس المتخصصة فى الكويت.

والشيخ سعد متزوج من ابنة عمه الشيخة لطيفة فهد السالم وله منها ولد وحيد هو فهد وأربع بنات هن مريم وحصة وفادية وجمايل.

وعرف عن الشيخ سعد حبه لمطالعة الكتب التاريخية والعسكرية والأدبية، ومن هواياته صيد السمك والزراعة والتصوير، كما عرف عنه التزامه ببرنامج رياضى للمشى كل صباح فى قصره بمنطقة الشعب جنوب شرقى العاصمة الكويتية قبل توجهه إلى مقر عمله فى قصر بيان جنوب العاصمة.

❁ الشيخ صباح الأحمد .. وقضايا شائكة :

الشيخ صباح الأحمد أو " عميد وزراء الخارجية العرب " كما يوصف، رجل رائع بكل المقاييس، زكى مثقف بعيد الرؤية، خبير متعمق بشئون ساس ويسوس وسائس ومسوس.. وبمجرد أن تقرأ له حواراً أو تصريحاً تستشعر أنك أمام صرح عظيم، وأن ما أردت أن تبنيه من رأى بشأن بعض القضايا قد اصبح أمراً ميسوراً .

وإجاباته واضحة لا لبس فيها، موضوعية لا تملق فيها، مرنة لا تعصب فيها، ولكى نتعرف على رؤى الشيخ صباح الأحمد بإزاء ما يمكن أن نطلق عليه قضايا الساعة. آثرنا أن يكون الكلام على لسانه مباشرة دون زيادة أو نقصان، وذلك من خلال حوار أجراه مع مجلة الحوادث فى ١٥/٧/١٩٩٤.

" الحوادث " السلام هل هو آت .. وهل الدولة الفلسطينية قائمة بهذا الشكل المنقوص والأبتر؟

الشيخ صباح الأحمد الصباح : كلنا نسعى إلى السلام .. ولكن نحن نريد السلام العادل ..

وعندما حصل التوقيع بين الفلسطينيين وإسرائيل كنا أول من رحب به كمجلس تعاون خليجى، على أنه خطوة أولى فى طريق الحل العادل الدائم والشامل.

وأنا أعتقد أنه، بتوقيع هذا الاتفاق، فتح باب السلام ومن الصعب أن يعاد أقفاله، ولا أعتقد أن باب السلام سيغلق بعد اليوم، ولكنه سيأخذ مداه الطويل، ولا أتصور أن يتحقق السلام الكامل قبل أول السنة المقبلة، ونحن نتمنى أن لا يكون بعيداً .

" الحوادث " ولكن إسرائيل هل هى جادة فى عملية السلام ؟

الشيخ صباح : إسرائيل لها مصلحة فى أن تكون جادة فالأسواق العربية كلها ستصبح فى متناولها، إذا تحقق السلام، لأنها متفوقة تكنولوجيا وتجاريا وصناعيا.

وإن من مصلحة إسرائيل أن يتم السلام .. وقد تكون هناك مزايدة بين حزبين فى إسرائيل إنما الحزبان يعرفان أن السلام هو من مصلحة إسرائيل.

" الحوادث " هناك طرح متعارف عليه : أن لا حرب بلا مصر ولا سلام بلا سوريا، فهل هذا الطرح قائم، وهل يمكن أن يقوم سلام فى المنطقة بلا موافقة سوريا؟

الشيخ صباح : أولاً بالنسبة إلى القول أن لا حرب بدون مصر، فإن مصر اتفقت مع إسرائيل فى كامب ديفيد واسترجعت أراضيها وانتهى الموضوع بإقامة علاقات عادية مع إسرائيل، وقد استعادت

مصر هذه الأراضى دون أن تزهق الدماء .. وقد خسرت مصر الكثير فى هذا الموضوع .

أما بالنسبة إلى سوريا فأنا أجزم أنه لا سلام بدون سوريا.. سوريا هى مفتاح السلام فى المنطقة وعلينا كلنا فى العالم العربى أن نشد أزر سوريا من أجل موقفها ومن أجل دعمها دولياً لتنال حقوقها فى الجولان ولتبسط سيادتها على أراضيها.

" الحوادث " .. ولبنان أين موقعه من ذلك ؟

الشيخ صباح، طبعاً هو شريك فى عملية السلام، وأنا لا أقول لا سلام بدون إعطاء لبنان حقه بتطبيق القرارات الدولية وعلى الدول أن تخضع للقرارات الشرعية الدولية. ولذلك نحن سنبقى مع لبنان إلى أن يستعيد حقه ..

" الحوادث " .. وهل ستنسحب إسرائيل من لبنان ؟

الشيخ صباح : رغماً عنها ستنسحب مطبقة بذلك قرار مجلس الأمن إذا كان هناك احترام لقرارات مجلس الأمن .

" الحوادث " الاتصالات العربية - الإسرائيلية المنفردة هل تؤثر على عملية السلام الشامل ؟

الشيخ صباح : لا أريد الدخول فى مواضيع أتمنى أن لا أدخل فيها، لكن أحب التذكير بأننا كلنا شاركنا فى اجتماعات متعددة

الأطراف بأسبانيا برعاية أميرة . سوفياتية. ومن هناك بدأت الاجتماعات المتعددة الأطراف، كذلك حصلت اجتماعات في عمان وفي قطر وهذا لا يعني أن هذه الاجتماعات ستؤثر سلباً على عملية السلام في المنطقة .

وأنا أعتقد أن السلام لا تحققه قطر أو عمان أو الكويت . فالسلام يتحقق من قبل الدول ذات العلاقة المباشرة .

" الحوادث " : اجتماع وزراء دول إعلان دمشق، هل حقق أغراضه ؟

الشيخ صباح : نعم، حقق أغراضه، وقد التزمنا بجدول الأعمال الذي نص على معالجة مواضيع تتعلق بالشرق الأوسط وبامتثال العراق لقرارات مجلس الأمن، وقضية اليمن وسواها .

" الحوادث " ماذا تتوقعون من زيارة الوزير كريستوفر إلى المنطقة ؟

الشيخ صباح : عليك أن تسأل من هم الذين سيزورهم كريستوفر؟ إن يزور الكويت ضمن برنامجه ولم نبلغ رسمياً عن هذا الموضوع .

" الحوادث " الموقف من العراق بالنسبة للكويت وللخليج أما يزال هو إياه .. وهل ترى أنه من الممكن عقد مؤتمر قمة عربي في ظل هذه الأجواء ؟

الشيخ صباح : أولاً أريد التأكيد أننا لسنا ضد شعب العراق . وإذا كان أحد يتألم على الشعب العراقي فنحن أكثر الناس تألماً عليه . فإن خلافنا هو مع النظام العراقي الحالي .. ولا أعتقد بأن هناك

جدوى من عقد مؤتمر قمة عربى إذا لم ينفذ العراق قرارات مجلس الأمن وخصوصاً القرار ٨٣٨ وقضية الأسرى . ولكى يعود العراق إلى حظيرته العربية والدولية عليه تنفيذ القرارات الدولية ... وإذا لم ينفذها فلا أعتقد أن هناك جدوى من اجتماع قمة عربى ولا هناك جدوى من أى مصالحة، ولا معنى لما يكرره دائماً بأنه يجب أن تكون هناك مصالحة عربية .

" الحوادث " .. وماذا عن الأسرى الكويتيين ؟

الشيخ صباح : لدى العراق أكثر من ٦٠٠ أسير كويتى وأغلبهم أطفال ونساء خطفوا من بيوتهم . وهذا الموضوع، أى استعادتهم، هو شغلنا الشاغل.

فالولد يريد معرفة مكان والده، والمرأة تريد معرفة مكان زوجها، والأولاد يريدون معرفة مكان أمهاتهم، وقد قدمنا ملفات بأسماء كل الأسرى، ومن قبض عليهم، ومن أعطى الأوامر لأسرهم، وإلى أين ذهبوا، ومن أخذهم إلى مكان أسرهم فى العراق.

وكل هذه الملفات سلمت إلى الجامعة العربية وإلى الصليب الأحمر .. إنما يؤسفنا أنهم يدعون دائماً بأنه ليس لديهم أسرى، نحن نقول دعوا الصليب الأحمر يدخل العراق للبحث عن أسرانا وحتى اليوم لم يوافقوا على أن يدخل الصليب الأحمر إلى العراق .

ومن جهة ثانية إذا صح قولهم بأن الأسرى قتلوا فى الحرب فنقول لهم أعطونا جثثهم وبقاياهم .

كل هذه الأمور هى محط اهتمامنا، ولها أهمية قصوى بالنسبة لشعبنا، ونتمنى أن نصل إلى نتيجة قريباً جداً بشأنها .

" الحوادث " فيما يتعلق بقضية الجزر الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبى موسى وملكية الإمارات لها وخلافها حول هذا الشأن مع إيران، ماذا عنها ؟

الشيخ صباح : آسف أن يكون هناك خلاف بيننا وبين إيران، ولم نكن نتمنى هذا الخلاف، إيران جارة ونحن نريد دائماً أن تكون علاقاتنا جيدة مع جارتنا إيران .

وكنا ندعوا أن يحل موضوع الجزر والخلاف عليها بالطرق الدبلوماسية والحوار بين البلدين . إنما لم نجد آذاناً مصغية للحوار .

الحوار تقترحه إيران حول جزيرة واحدة فقط هى جزيرة أبى موسى .

ويهمنا أن يكون الحوار على الجزر الثلاث . وباعتقادى ستحل المشكلة بسهولة إذا وافقت إيران على بحث قضية الجزر الثلاث مع الإمارات .

وإخواننا فى غيران يتحاشون التحدث عن الجزر الثلاث بل يقولون أن موضوع جزيرة أبو موسى فقط قابل للحوار والبحث . وأتمنى أن تزول هذه القضية من مشاكل المنطقة بعد تفاهم الطرفين على حل يكون فى مصلحة المنطقة ككل .

" الحوادث " هل دول مجلس التعاون الخليجى متفاهمة على كل الخطوات المتخذة ؟

الشيخ صباح : لكل بلد رأيه . وهذا من حق أى بلد وأنت بسؤالك تقصد قطر. ولكن نحن لم نأخذ الوضع على محمل الجد بقدر الإخوان فى قطر الذين لهم رأيهم . وأتمنى إن شاء الله أنهم سيعودون إلى إخوانهم فى دول مجلس التعاون ليكون هناك تفاهم مشترك على حل كل مشاكلنا .

" الحوادث " الفلسطينيون هل ينقسمون حول القضية الفلسطينية والدولة القائمة أم سيتفاهمون فى النهاية ؟

الشيخ صباح : أتمنى أن لا ينقسموا .. غزة وأريحا موجودة وهناك من يطالب بزعامة فلسطينية أن تكون فى أريحا ويأتون دائماً بعذر هو أنه إذا لم يكن هناك مال، فنحن غير مستعدين للبحث فى أى شيء . الإنسان عندما يذهب إلى أرضه لا يحتاج إلى مال . وهذه الأشياء لا تسعدنا .

نحن وقفنا مع القضية الفلسطينية منذ بدايتها وسنقف ولن نغير رأينا . قد يكون هناك خلاف طبعاً مع منظمة التحرير، ونعلن ذلك دائماً ونقول بالفم الملآن أن ليس لدينا ثقة بالمنظمة التى تسمى بمنظمة التحرير.

ولكن ليس معنى ذلك أننا نحن ضد الشعب الفلسطينى . ولقد دفعنا مؤخراً لمساعدة الفلسطينيين ٢٥ مليون دولار. وهذا المبلغ دفع إلى البنك الدولى ولم يدفع إلى المنظمة لأنه ليس لدينا ثقة بالمنظمة ودفعنا المبلغ للبنك الدولى من أجل الأمور الصحية والاجتماعية والتربوية للفلسطينيين .

" الحوادث " الحركة الإسلامية هل هى ظاهرة عابرة أم أنها ستتعاظم .. وكيف تتعاملون معها ؟

الشيخ صباح : لا نربط الظاهرة التى لدينا بالظواهر الأخرى فى سائر الدول، ولكل بلد حريته فى التعامل مع الظواهر والمستجدات .

" الحوادث " النظام الدولى الجديد ما رأى الكويت فيه ؟

الشيخ صباح : ليس هناك نظام كامل . وقد رحبنا بقيام النظام العالمى الجديد بعد التغيير الذى استجد فى العالم .

من كان يصدق ما حصل فى الاتحاد السوفيتى ؟.. ومن كان يصدق بأن الاتحاد السوفيتى سيتمزق بهذه السرعة ؟ لكل نظام حسناته وسلبياته .

إننا من الناس الذين يؤيدون النظام الجديد . وهذا النظام هو لمستقبل العالم ككل .

" الحوادث " والشيوعية على انتهت فى العالم ؟

الشيخ صباح : لم أكن شيوعياً فى يوم من الأيام، وأعتقد أنه لم يبق شيوعيون إلا فى كوبا .. فعلينا أن نسأل الرئيس كاسترو ..

" الحوادث " أوروبا غاضبة هل العرب لأنها تعتبر أنها أدت قسطها فى حرب الخليج وأن العرب انحازوا إلى أمريكا فى كل الاتفاقات وفى كل العقود التى أقروها أخيراً وأن ذلك ينعكس سلباً على العلاقات العربية ـ الأوروبية فما هو رأيك ؟

الشيخ صباح : نحن ما انحزنا يوما إلا من خلال مناقصات .

صحيح أنه بعد التحرير لم يكن لدينا أحد نستعين به .. فاستعنا بشركات أمريكية وأوربية ولكن ليس معنى ذلك إننا منحازون .. واليوم تطرح المناقصات لكل الشركات ولا فرق بين أمريكية وفرنسية أو عربية ..

" الحوادث " أين أصبح موضوع صندوق الدعم العربي للبنان ؟

الشيخ صباح : أعتقد أن الذين سددوا لهذا الصندوق هما الكويت والسعودية. ولكن الظروف التى حصلت لنا فى الكويت هى التى حدتنا على أن نكون غير قادرين على متابعة الدعم المالى الآن .

وقد دفعنا أيضاً ٧٥ مليون دولار لبناء المدارس فى لبنان .

" الحوادث " تعاون الشمال والجنوب هل أعطى النتائج المرجوة أم أنه شأن ميؤوس منه ؟

الشيخ صباح : تجربة نتمنى إن شاء الله أن يحصد منها العالم الثالث شيئاً يفيده.

" الحوادث " روسيا، هل يوافق العمالقة أن تكون منهم وتصبح عضواً فى نادى الجبابرة كثواب لها على ما اتخذته من مواقف ضد الشيوعية ؟

الشيخ صباح : روسيا حتى الآن لا تزال دولة عملاقة ورغماً عنا هى عملاقة . والذى حصل لها قد أضعفها سياسياً ولكنها موجودة عسكرياً .

وأن علاقاتها اليوم مع الدول الأوربية وحلف الأطلسى متينة، وقد أجرت اتفاقات مع الدول والحلف، ووقعت مؤخراً اتفاقات

صداقة مع الدول الأوربية فى اليونان .وكل ذلك يصب فى مصلحة الأطراف جميعاً.

" الحوادث " موافقة أمريكا على تفريغ أنابيب النفط التركى هل هو مؤشر تحول أمريكى ضد الموقف السابق وتقارب مع العراق ؟

الشيخ صباح : أرجو أن لا تضع هذا الموضوع فى خانة التحول الأمريكى بقدر ما هو مساعدة لوضع اقتصادى متعثر فى تركيا، والأمريكيون لديهم قواعد استراتيجية. وفى نفس الوقت عليهم القيام بمحاولات لمساعدة تركيا . إن مساعدة تركيا يجب أن تأتى عن طريق تفريغ النفط فى الأنابيب وحتى الآن لم توافق عليه بعد اللجنة المختصة فى الأمم المتحدة .

ولو وافقت اللجنة سيكون المبلغ قيمته ٢٤٠ مليون دولار، منها ٣٠ بالمائة للتعويض وحصة الكويت منها.

وهذا سيحصل لمرة واحدة، ونحن لا نتأثر بهذا الموضوع، لذلك لا يكون هذا تبديلاً فى السياسة الأمريكية.

" الحوادث " المعروف عن الشيخ صباح الأحمد أنه موجود منذ أوائل الستينات على المسرح السياسى والدبلوماسى.. وهو من أعلم الدبلوماسيين ... لكننا نلاحظ وبعد فترة قصيرة من التحرير وكأنه فى

عزلـة، فـي الوقـت الـذى كـان فيـه لولبـاً للحركـات والمؤتمـرات والاجتماعـات فـي العـالم العربـي والـدولي.. مـا هـي الأسـباب التـي تجعلك تنكفئ عن هذا الدور؟

الشيخ صباح : ألا تعرف السبب حتى الآن ؟

" الحوادث " الذى صار فى جنوب أفريقيا كلنا ارتاح إليه وقد أنهى المشكلة التقليدية وأدان التمييز العنصرى بشكل سليم، فما هو رأيك بمستقبل جنوب أفريقيا ؟

الشيخ صباح : نحن أولاً سعداء بجنوب أفريقيا بعد إزالة التفرقة العنصرية منها، وأنا ذهبت إلى جنوب أفريقيا لتمثيل سمو الأمير، وهناك التقيت بوزير خارجية لبنان فارس بويز.

ونحن مرتاحون للحكم الديموقراطى الذى أتى بشخص كان فى السجن لمدة ٢٥ سنة ثم خرج من السجن ليدخل القصر الجمهورى رئيساً للدولة . وهذا يدل على أن جنوب أفريقيا مقبل على أيام جيدة لا سيئة، إذا ساد العقل فيها، وأرجو أن يسود هذا العقل .

عزيزى القارئ، ألا ترى معى أن الشيخ صباح الأحمد حقاً موسوعة .

الشيخ ناصر صباح الأحمد .. معارض من طراز خاص :

لئن كان بروز صف من المعارضة السياسية في صفوف الأسرة الحاكمة في بداية التسعينات حدثاً فريداً في الحالة السياسية الكويتية فقد عد تعيين الشيخ ناصر صباح الأحمد مستشاراً وبدرجة وزير في مكتب ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الكويتي وكذلك الشيخ سعد العبد الله الصباح أيضاً حدثاً بارزاً تختتم به الكويت قرنها العشرين واثبة نحو الألفية الثالثة.

وتوضح القراءة الأولية لاختيار الشيخ ناصر في هذا الموقع كان التفاتاً من الصف الأول في الأسرة والذي يتولى مقاليد الأمور لهذا النفس المتنامي، وربما قيل إن استيراد بناء الأسرة يحقق الغرض، غير أن المتبصر في الحالة السياسية يستطيع أن يقف على أهمية المنصب الذي يعطي لصاحبه حرية الحركة بمعزل عن المناورات السياسية التي يكون الوزير مضطراً لها بحكم عمله ومشاركته في البرلمان.

ويذهب آخرون إلى أن قرار التعيين لم يكن يحمل ملامح سياسية بقدر ما يبرز ملامح إنسانية تتلخص في رغبة ولي العهد إلى احتواء أبناء الأسرة الحاكمة ليس بهدف تحييدهم وإنما إبقاء على

فاعلية الرابطة الأسرية فى ظل الظروف الصحية الدقيقة التى يمر بها ولى العهد.

ويعتبر الشيخ ناصر من الوجوه البارزة فى الجيل الثانى للأسرة الحاكمة فى الكويت، ووضح هذا البروز بعدما عمد إلى شراء حق امتياز مجلة أسبوعية ركزت على انتقاد الأداء الحكومى بقوة، بل وتحدثت أحياناً عن مخالفة النهج الحكومى للخطاب الأميرى، وجاء ذلك على لسان الشيخ ناصر شخصياً فى لقاء له مع المجلة تحدث فيها بصراحة عن الحاجة لبلورة رؤية تنموية واضحة مستندة إلى منظور تاريخى وفلسفى واستراتيجى يحاول الاستفادة من الإمكانات الراهنة من جهة، واستعادة الدور التاريخى للكويت من جهة ثانية، واستنهاض طاقات الإنسان الكويتى وقدراته وفاعليته من جهة ثالثة.

وكان الشيخ ناصر من ضمن مجموعة من أبناء الأسرة وقعت بياناً تطالب فيه بإدخال إصلاحات جذرية فى الكويت فى بداية التسعينات.

وربما يتلخص هذا الإصلاح السياسى فى ما قاله الشيخ ناصر بأنه مفهوم يتراوح فهمه بين من يراه فى فصل ولاية العهد عن رئاسة الوزراء وبين من يراه فى سلطة تنفيذية تضم وزراء كفاءة ونجاح

واحترام اجتماعى وبين نزاهة الانتخابات ومنع تدخلات السلطة التنفيذية فيها.

والشيخ ناصر هو النجل الأكبر للشيخ صباح الأحمد النائب الأول لرئيس الوزراء ووزير الخارجية، درس فى بريطانيا وحصل فيها على شهادة الدبلوم، وفيما عدا منصب مستشار للشئون الخارجية فى الديوان الأميرى قام بنقل رسائل من الأمير الشيخ جابر الأحمد الصباح لعدد من قادة العالم، فى ما عدا ذلك فإن الشيخ ناصر ظل خارج المحيط السياسى عازفاً عن المنصب الوزارى رغم أن اسمه طرح كمرشح فى أكثر من تشكيل وزارى.

وإن كان العزوف عن المنصب موقفاً سياسياً جعل الشيخ ناصر حاضراً بقوة فى المعادلة السياسية الكويتية، فإن النجاح الذى حققه كرجل أعمال من الطراز الأول حقق له قوة إضافية، فقد أشرف على إدارة مؤسسة الخليج العالمية، وساهم فى تأسيس البنك الأردنى الكويتى وشركة مجموعة الشارقة، ويعرف بأنه استثمارى من الدرجة الأولى.

والشيخ ناصر متزوج من الشيخة حصة صباح السالم ابنة أمير الكويت الراحل وأخت نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع الشيخ سالم الصباح، ويشكل معها ثنائياً شغف باقتناء الآثار الإسلامية ويعتبران

من أبرز الوجوه العالمية فى هذا المضمار، وتشغل زوجته الشيخة حصة منصب مديرة دار الآثار الإسلامية والتى تعرض مقتنيات أسرة الشيخ ناصر فيها، ومؤخراً حصلا على حكم بالتعويض بسبب فقدانهما لبعض الآثار التى كانت معروضة فى وزارة الإعلام الكويتية أثناء الغزو العراقى .

الفصل الثالث

ما لم ينشر عن الشيخ زايد آل نهيان

تذهب غالبية المراجع التى تتعرض للسيرة الذاتية لحياة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان إلى عراقة أصوله ونقاء معدنه ونصاعة صحائفه.. وتضيف .. إنه عاش طفولة منطلقة فى بيته صحوة مغموراً من ذويه بالحب والحنان ، وإنه عشق منذ صغره القيم العربية الأصيلة من كرم وغيرة على الأهل والخلان والتأمل فى ملكوت الله الواسع .

وفى صباه عشق الصيد ، وكان صبوراً لا يكل ولا يمل . حينما يعمد إلى اصطياد أحدها . حتى يحقق ما يصبو إليه ... الأمر الذى جعله مناطاً للحديث ومضرباً للأمثال فى منطقة جبل " حفيت " على الحدود بين أبو ظبى وعمان ...

وقد ترعرعت معه هذه الهواية فى شبابه حتى اشتهر بين المحيطين بهما بدأبه وإصراره على تحقيق أهدافه مهما كلفه ذلك من جهد وعناء ...

بالإضافة إلى ذلك فقد تميز الشيخ زايد منذ نعومة أظافره بإرادته الحديدية ، ودغدغة كل ما يمكن أن يواجهه من تحديات مهما كانت مستغلة وجسيمة .

كذلك أجاد الشيخ زايد فى المراحل المبكرة من عمره الفروسية ، ولم يضارعه أحد من أقرانه فى معرفة خبايا وخفايا هذا الضنى

الأصيل ، وما يسبغ به مجيئه من روية وأناة وانطلاق وكفاءة فى الأداء ...

هذه السمات العظيمة والقدرات الخارقة مكنت الشيخ زايد من النهوض بمدينة العين حينما تولى شئونها عام ١٩٢٦ ، حيث استطاع بمقدرة فائقة وحنكة نادرة الارتقاء بها وعلى كافة الأصعدة (اجتماعية وعمرانية وثقافية..إلخ) بصورة لا مثيل لها بحيث أضحت تحفة معمارية وحضارية نادرة...

وهكذا عبر الشيخ زايد من نجاح إلى نجاح ، ومن نصر إلى نصر حتى أنصف القدر دولة الإمارات فى السادس من أغسطس ١٩٦٦ ، عندما تولى هذا الفارس مقاليد الأمور، وسط هالة من الترحيب والمباركة والإجماع غير المسبوق فى إمارة أبو ظبى .

ثم كان الإنجاز التاريخى الرائع حينما دانت له الإمارات العربية المتحدة فى الثانى من ديسمبر ١٩٧١ .

ومنذ ذلك الحين وسمو الشيخ زايد أو كما يطلق عليه البعض الصقر لا يدع جهداً ولا يتردد عن نصرة قضايا وطنه والزود عنها ، ويبذل النفيس فى سبيل تقدمه وازدهاره، لدرجة أن بنى وطنه لا يعتبرونه حاكماً لهم ، بقدر ما يعتبرونه أباً لهم ؛ يطرحون لديه مشاكلهم وهمومهم ، ويتسابقون إليه فى أفراحهم ، حتى يخيل

للبعض أن دولة الإمارات العربية المتحدة أسرة واحدة يرعاها سمو الشيخ زايد .

وعلى الصعيد العملى المحلى ، فقد شهد الإمارات فى عهد سمو الشيخ زايد نهضة اقتصادية رائعة أساسها ليس التوظيف الكفء لعائدات الثروة النفطية فحسب، وإنما أيضاً حسن توجيه سموه وإرشاداته المستنيرة ، والتى لا يتوقف عن إيصالها لمسئوليه .

أيضاً شهدت الإمارات فى عهد سمو الشيخ زايد نقلة نوعية بعيدة فى المجال السياسى وانفتاحية سياسية يحسدها عليها الآخرون .

ومن الناحية الاجتماعية فقلما نجد إنساناً فى إنسانية سمو الشيخ زايد ، حيث يسعى بنفسه إلى تلبية احتياجات مواطنيه ، وتكسير وإزالة ما يعترض تقدمهم من مشاكل اجتماعية ، ولم يوصد بابه يوماً ما أمام أحد من بنى وطنه .

ومن الناحية العمرانية ، أصبحت دولة الإمارات العربية المتحدة فى عهد الشيخ زايد تحفة معمارية وحضارية رائعة ، يشهد الجميع بروعتها وأناقتها ، سواء تمثلت هذه الروعة فى بنايات تعليمية أو فنية أو إنتاجية ...

ومن الناحية الثقافية والإعلامية ، كفى سموه فخراً أن أصبحت الإمارات بمثابة ملتقى جذب مفتوح ، وقبلة للنخب

الفكرية والثقافية والإعلامية التى تفد إليها من شتى جنبات الوطن العربى ومنارة للعلم والفكر والثقافة على الجانب الشرقى من الوطن العربى ...

وفى النطاق الخارجى ، يعتبر سمو الشيخ زايد من أبرز الشخصيات سخاء وكرماً فى خدمة قضايا الأمة العربية سواء فيما يقدمه من دعم مادى ومعنوى لأشقائه العرب ، ليس من منطلق المنة وإنما من منطلق الواجب ، أو فيما يطرحه من حلول دبلوماسية فعالة للقضايا العربية ...

كما كان سموه من ذوى الفضل فى وضع البذور الأولى لاتحاد مجلس التعاون الخليجى ، كذلك كان للشيخ زايد موقفه الثابت إزاء قضايا الصراع العربى .. الإسرائيلى .

ورغم التصعيد الذى تبديه إيران من آن لآخر ، والتشدد الذى تنتهجه بإزاء الجزر المتنازع عليها فى الخليج والمشار إليها آنفاً فإن للشيخ زايد أسلوبه الدبلوماسى الهادئ والمدروس ، والذى يهدف إلى أن يؤول الحق فى النهاية إلى أصحابه .

وفوق كل ما سبق فإن سمو الشيخ زايد يتمتع بشبكة علاقات دبلوماسية ، بل وشخصية أيضاً ، قوية سواء على المستوى العربى أو الدولى قلماً نجد مثيلاً لها فى الحقبة الراهنة .

وعلى نفس نهج سمو الشيخ زايد يسير الشيخ عبد الله بن زايد ، والذى يتولى وزير الثقافة والإعلام ، حيث دوماً ما يؤكد على الحرية بوجه عام ، والحرية الإعلامية بوجه خاص باعتبارها حجر الزاوية فى تخليص المجتمعات العربية ، من الهوان الذى تعرضت له إبان الفترة الاستعمارية .

الفصل الرابع

البحرين - اللعبة والمؤامرة

بعد أن انتقل الشيخ عيسى بن سلطان آل خليفة إلى الرفيق الأعلى تزاحمت العديد من الأسئلة من قبل المحللين والمعلقين ، كلها دارت حول ما إذا كان الأمير الجديد لدولة البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة سوف يتبع نفس النهج الذى كان يسير عليه الشيخ عيسى فى إدارة دفة الحكم فى البحرين ؟ ذلك النهج الذى اتسم بالمكاشفة والصراحة من ناحية ، ومحاولة بناء شبكة جيدة فى محيط العلاقات الدولية من ناحية أخرى ، أى أنه سيتبنى نهجاً آخر.

وقد اشتهر الشيخ عيسى رحمه الله ـ بالتواضع وعدم الانغماس فى ملذات السلطة والقرب من شعبه بصورة ملفتة للأنظار، يسمع لهم ويساهم فى حل مشكلاتهم دون ضيق أو تمعض ، مرتفعاً عن صغائر الأمور وسطحيتها ، صاباً كل تركيزه على المصالح العليا لدولة البحرين ورفعة فى المكانة .

كذلك كان الشيخ عيسى واسع الاطلاع لا يحب الميل إلى التصريحات الرنانة ، شغوفاً بالأخبار وبمتابعة الأحداث وسماع التحليلات السياسية المتعمقة ..

وهكذا استطاع الشيخ عيسى بحنكة نادرة ، وفهم سياسى عميق أن يحافظ على بلاده طيلة حياته مما تعرضت له من عواصف ،

وأن يتصدى بحزم وعقلانية لما تعرضت له من أزمات داخلية وخارجية ...

واليوم .. وبعد أن رحل الشيخ عيسى عن دنيانا وحمل ابنه الشيخ حمد أمانة المسئولية ، فإن السؤال الذى طرح بإلحاح منقطع النظير هو.. هل الشيخ حمد سوف يسير على نفس النهج الذى ارتسمه والده لدولة البحرين ؟ ... إن ذلك يقتضى إلقاء نظرة على أوضاع البحرين وثرائها .

تشكل البحرين جزيرة صغيرة ، ولكنها ذات مكانة عريقة ، كما تمثل مركزاً للنشاط السياسى والتجارى ، وبؤرة التقاء للوافدين من كل شبه الجزيرة العربية وغيرها ...

كذلك تتميز دولة البحرين بأنها مركز إشعاع حضارى وإعلامى يخدم ليس دول الخليج وحدها ، وإنما العالم العربى ككل ، حيث تصب فيه الأخبار وتنطلق فيه التحليلات البناءة إلى شتى جنبات الوطن العربى .

أيضاً تعتبر دولة البحرين مدرسة دبلوماسية رائعة أرسى قواعدها الشيخ مبارك آل خليفة .

ولقد تعرضت البحرين بسبب فوضى الأوضاع السياسية والاقتصادية التى عاشتها إيران لضغوطات عدة يأتى فى مقدمتها

تشكيك النظام الإيرانى من آن لآخر فى عروبة البحرين تحت ذرائع وحجج مشبوهة مثل الدفاع عن حقوق الشيعة وأن البحرين تنتمى تاريخياً لفارس ... بل ويتصاعد الأمر، حينما يهدد الإيرانيون بضم البحرين .

وواقع الحال ، فإن البحرين تعد البلد الوحيد الذى حسم موضوع عروبته وقوميته سياسياً وتاريخياً عام ١٩٧٠ تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة .

إنه حتى البحرانيين من ذوى الأصول الإيرانية يعلنون عن هويتهم البحرينية على أية هوية أخرى ... وعلى هذا الأساس فإن حجج الإيرانيين تعد واهية ولا أساس لها من الصحة .

وعلى صعيد آخر تعرضت البحرين للعديد من السهام المسمومة على أثر الخلاف الحدودى مع الشقيقة قطر حول جزيرتى " حوار" و " فشت الديبل "...

وحتى الآن لا زالت دولة البحرين تتعامل بعقلانية مشهودة بإزاء هذا الخلاف ، ومن ثم لم تمانع بأن يتم عرض الخلاف للتحكيم على محكمة العدل الدولية فى لاهاى .

وعلى صعيد ثالث ، وفيما يتعلق بالأوضاع الداخلية بالبحرين ، فقد عرفت البحرين بهدوؤها ، وشيوع الأمن والطمأنينة بها ، وإشاعة المودة والإخاء بين أبنائها بغض النظر عن مذاهبهم الدينية .

ويعتبر ما حدث فى صيف ١٩٩٤ من عمليات احتجاج وتخريب أمراً شاذاً حركته قوى أجنبية خفية بهدف النيل من وحدة وتماسك الوطن الواحد ... إلا أن حزم الشيخ عيسى ووعيه الكامل بمخاطر الموقف سرعان ما أعاد الأمور إلى نصابها وأعاد إلى الدولة هيبتها .

وفيما يتعلق بعلاقة البحرين بجيرانها الخليجيين ، فإن البحرينيين يعتبرون أن دول الخليج تتمتع بأنظمة سياسية واقتصادية متشابهة ، كما تتمتع بأوضاع جغرافية واجتماعية متقاربة ، ولذا فإن لديهم ميلاً دائماً إلى التنسيق الدورى والمنتظم مع هؤلاء الجيران ، وإن كان السلوك العراقى بغزو الكويت فى صيف ١٩٩٠ ما زال يمثل نقطة فارقة فى نفوس البحرينيين بإزاء النظام العراقى ...

والآن .. بعد تولى الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة مقاليد الأمور، لاسيما وهو يمتلك أكبر قوة فاعلة متمثلة فى شبابه ، ورجاحة عقله ، هل بإمكانه أن يتم المسيرة العظيمة التى وضع لبناتها الأولى الشيخ عيسى ؟

إن الفترة السابقة تظهر ودون أدنى شك أن الشيخ حمد قادر على تولى المسئولية ، وإنه بما لديه من قدرات خلاقة وإمكانات باهرة سيأخذ بيد البحرين إلى مزيد من النهوض والرقى والتقدم ، وأنه كفيل بها وكفء للتعاطى مع القضايا الساخنة التى تشهدها الساحة البحرينية حالياً ، أو التى قد تشهدها مستقبلاً . فهنيئاً لشعب البحرين بأميره الشاب.

الفصل الخامس

الأردن .. مات الملك .. عاش الملك

- نظرة على أحول الأردن.
- الملك حسين .. مكيأفيللى العرب.
- الملك عبد الله .. والتركة الثقيلة

نظرة على أحوال الأردن

الأردن دولة صغيرة المساحة ، تحيط بها سوريا من شمال العراق من الشمال الشرقى وإسرائيل من الغرب والبحر الأحمر وخليج العقبة من الجنوب والشرق وباستثناء جزء محدود ليست هناك حدود طبيعية تفصل الأردن عن جيرانه. وتنقسم الأردن من الناحية الجغرافية إلى ثلاث مناطق متميزة . تتمثل أولى هذه المناطق فى الهضبة الشرقية والتى ترتفع فى بعض أجزائها بنحو ١٧٠٠ متر عن سطح البحر ، وتنحدر تدريجيا صوب المرتفعات الصحراوية فى كل من سوريا والعراق والمملكة العربية السعودية . يفصل بين هذه المرتفعات مجموعة من الوديان مثل وادى العرب ووادى الزرقا . أما المنطقة الثانية فتمتد من خليج العقبة فى الجنوب حتى بحيرة طبرية والحدود السورية - الأردنية فى الشمال ، وتشتمل على وادى نهر الأردن . وتضم المنطقة الثالثة مرتفعات الضفة الغربية لنهر الأردن - تحت الاحتلال الإسرائيلى منذ عام ١٩٦٧ - والتى تمتد بمحاذاة المرتفعات الشرقية وعلى نفس الارتفاع تقريباً .

ويعتبر الأردن دولة حبيسة باستثناء منفذ صغير على خليج العقبة. وهو المنفذ الذى يمنح مصر أهمية حيوية بالنسبة لصادرات

الأردن من الفوسفات . نظراً لسيطرتها على الملاحة فى ذلك الجزء من البحر الأحمر.

وتعد قدرة الأردن على تنمية اقتصاده من خلال التوسع الزراعى محدودة للغاية بسبب الموارد المائية اللازمة للرى . فنحو ٧٥٪ من أراضى البلاد صحراوية . ويعتمد الرى فى منطقة وادى نهر الأردن والبحر الميت بصفة أساسية على موارد المياه من المرتفعات الشرقية . ويعتبر نهرا اليرموك وذغرا مصدرا المياه الدائمين للبلاد - إلى جانب نهر الأردن - والذين تعتمد عليهما فى رى أراضيها الزراعية .

هذه الحاجة الملحة إلى مياه الرى مثلت مصدراً للصراع الإقليمى منذ عام ١٩٣٩م . إذ أنه نهر الأردن يجرى عبر كل من إسرائيل وسوريا ولبنان كما يجرى فى الأردن وبالرغم من المحاولات المتكررة لإيجاد نظام متكامل لاستخدامات المياه يضم كافة بلدان حوض النهر، إلا أن الحروب المستمرة وجو التوتر العام الذى يسود المنطقة وقف عائقاً فى سبيل تحقيق ذلك . وينظر الأردن إلى الاستغلال الإسرائيلى لمياه النهر على أنه تهديد مباشر له بصفة خاصة ، خاصة بعد قيام إسرائيل باحتلال كل من الضفة الغربية ومرتفعات الجولان السورية فى أعقاب حرب عام ١٩٦٧ . فلم تمض إسرائيل منذ ذلك الوقت فى تنفيذ خططها فى هذا المجال فقط بل ووقفت حائلا دون الخطط الأردنية - السورية المشتركة لتطوير

مصادر الري . كما يعتبر الأردن المشروعات الإسرائيلية الخاصة باستغلال المياه تقطع نصيباً كبيراً من موارد المياه فى المنطقة ويترتب عليها أضرار كبيرة فيما يتعلق بنصيب الأردن من مياه نهر الأردن فى المستقبل. وهو الأمر الذى أضاف بعداً آخر إلى حاجة الأردن إلى بذل الجهود للتوصل إلى تسوية سلمية فى المنطقة . إذ أنه مما لا شك فيه أن نقص مياه الرى يترتب عليه نتائج خطيرة بالنسبة لقدرة الأردن على مواجهة المطالب والاحتياجات المتزايدة لسكانه.

ورغم محدودية سكان الأردن - نحو ٦٥٦ر٢ ٠٠٠ر نسمة إلا أن البلاد تعانى من مظاهر عدم الاستقرار بسبب التوترات الاجتماعية والسياسية بين السكان الأصليين لإمارة شرق الأردن من ناحية، والسكان الفلسطينيين الذين تم دمجهم فى المجتمع الأردنى منذ عام ١٩٤٨ من ناحية أخرى . وتجدر الإشارة إلى أن تعداد السكان الأصليين للضفة الشرقية لم يكن يتعدى ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٤٨ ، وهم بصفة عامة من البدو وسكان القرى والذين لم يكونوا يتمتعون بمستويات تعليمية راقية أو خدمات صحية أو غيرها من الخدمات والمزايا التى يتمتع بها ساكنو المناطق الحضرية . غير أن حكام الأردن نجحوا من خلال سياسة واعية ونشطة فى ربط هؤلاء السكان بالنظام الملكى الذى أقاموه وأقنعوهم بأنه من مصلحتهم استمرار النظام واستقلال الأردن .

إلا أن الفلسطينيين من الناحية الأخرى كان لهم خلفيتهم المتميزة . فهم بصفة عامة من ساكنى المناطق الحضرية ويتمتعون بمستوى تعليمى أكثر رقياً . فضلاً عن اعتيادهم على الخدمات الحضرية وتعرضهم لوسائل الأعلام الجماهيرى نتيجة انفتاحهم على الغرب. ليس ذلك فحسب ، بل إن تعدادهم يكاد يقترب من ضعف السكان الأردنيين أنفسهم ويسبب خلفياتهم الثقافية والاجتماعية المختلفة واستمرار ارتباطهم بهويتهم الفلسطينية أحتفظ الفلسطينيون من جانبهم بذاتيتهم المتميزة . أكثر من ذلك ، فقد شعروا باغتراب نتيجة إحساسهم بعدم تمثيلهم من الناحية السياسية ، فضلا عن إبعادهم عن المناصب العليا فى الحكومة والمؤسسة العسكرية . وهو الوضع الذى كان يتناقض بصورة واضحة مع الامتيازات التى كانت تتمتع بها الأقليات الصغيرة الأخرى فى الأردن مثل المسيحيون - والذين قدر عددهم بنحو ٧٨٫٠٠٠ فى عام ١٩٧٩ ، والشراكسة من السنة المسلمين - والذين قدر عددهم بنحو ١٢٫٠٠٠ فى أوائل الخمسينات .

ترتب على هذه الأوضاع آثار خطيرة على التماسك الاجتماعى والسياسى للمجتمع الأردنى . واعتمدت شرعية النظام الهاشمى على دعم وتأييد سكان البلاد من القبائل الأصلية من ناحية والمسيحيين والشراكسة من ناحية أخرى . وكلها فى حقيقة الأمر ليست سوى أقليات . وعليه تعرض النظام لانتقادات حادة من جانب الغالبية

العظمى من سكان البلاد من الفلسطينيين والأكثروعياً من الناحية السياسية والمرتبطين بقوة بهويتهم الأصلية .

وتعد الزراعة المصدر الرئيسي لدخل لأردن بسبب ضعف القطاع الصناعي وصغره . فضلا عن ذلك ، أدى فقد الضفة الغربية منذ عام ١٩٦٧ إلى حرمان الأردن ليس فقط من بعض من أراضيه الخصبة بل أيضا من فرصته في تطوير نظام متقدم للري .

ويعتبر الأردن فقيراً أيضا فيما يتعلق بالثروة المعدنية باستثناء الفوسفات والذي يضعه في الترتيب الخامس من حيث إنتاجه على المستوى العالمي وفي الترتيب الثالث من حيث التصدير ، بما يعنيه ذلك من أن الفوسفات يشكل معظم صادرات الأردن . أما فيما يتعلق بالصناعة الأردنية فهي محدودة وتتركز في الأسمنت والبوتاس اللذين يشكلان بدورهما جزءاً كبيراً من صادرات البلاد .

وعلى الرغم من أن الاقتصاد الأردني يعد اقتصاداً حراً من حيث المبدأ إلا أن الحكومة تلعب فيه دوراً حيوياً . إذ يشكل القطاع العام نصف حجم الاستثمار القومي ويعمل به قرابة نصف القوى العاملة . هذا الدور الحيوي للقطاع العام يعطي النظام قوة داخلية لا يستهان بها . ولكنه يجعله في ذات الوقت هدفاً للمطالب المتزايدة على التوظف ومستويات معيشية أفضل. وعليه فقد اعتاد الأردن

بسبب تواضع مـوارده الاقتصاديـة على الاعتمـاد علـى المسـاعدات الخارجية لمواجهة المطالب والاحتياجات المتزايدة للسكان .

وفيما يتعلق بالقدرات العسكرية الأردنية فهى تعد محدودة للغاية إذا مـا قورنـت بـالقدرات العسكرية لجيرانـها . فعلى سـبيل المثال ، بلغت ميزانية الدفاع الأردنيـة ٤٦٥ر٧ مليـون دولار فـى عـام ١٩٨٩ مقـابل نحـو ١٤ر٦٩ بليـون دولار بالنسـبة للسـعودية ، و ٢ر٤٩ بليون دولار بالنسبة لسوريا ، و ٦ر٣٧ بليون دولار بالنسبة لإسرائيل ، ونحو ١٢ر٨٧ بليون دولار بالنسبة للعراق فى عام ١٩٨٨ . ليس ذلك فحسب ، بل إن إجمالى تعداد القوات المسلحة الأردنية العاملة أيضا يعـد محـدوداً نسـبياً مقارنـة بنحـو ١٤١ر٠٠٠ بالنسـبة لإسـرائيل ، و ٦٥ر٧٠٠ بالنسبة للسعودية ،و ٤٠٤ر٠٠٠ بالنسبة لسوريا ، ونحو مليون جندى بالنسبة للعراق .

وفى عهد الملك حسين .. كان النظام السياسى الأردنى يتحـول حول دور الملك ويعيش بصفة أساسية على محدداته حتى وصل الأمر بـالبعض لأن يصفه بأنه كان لا يقل دهـاء عـن مكيـافيللى ، وكذلـك على مكانيـة الشـخصية التـى كـانت تنـهض بالأسـاس علـى الـدور التـاريخى والدينـى الـذى تمتعـت بـه أسرته والواقـع أن مكانـة الملـك حسين الشخصية تطورت من خلال قدرته على الاستمرار والبقاء فى الحكم لفترة طويلة . إذ تمكن من البقـاء فى السلطة منذ عـام ١٩٥٣ على الرغم مـن التـهديدات والمخـاطر التـى تعـرض لهـا نظامـه . كمـا

يحسب له أيضا قدرته على التأثير فى رعاياه واحتفاظه بروابط تقليدية قوية مع الجماعات والقبائل والتى تعود فى حقيقة الأمر إلى جهود جده الملك عبد الله . فضلا عن روابطه التقليدية القوية مع القادة العسكريين . مثلت هذه العلاقات القوية قاعدة صلبة من التأييد والدعم لنظامه السياسى . إلى جانب ذلك تمثل مواريثه الأسرية عنصراً آخر وراء قوة نظامه لأن الهاشميين ينحدرون مباشرة من الأسرة النبوية الشريفة . كما أنه أضفى على نفسه - وعلى أسرته استناداً إلى انتمائها إلى سلالة قادة الثورة العربية الكبرى - مهمة تاريخية جعلته يبز أقرانه من الأردنيين وأمدته بقاعدة قوية من التضامن المتبادل .

وفى الفصل التالى سوف نعرض الصفحات المغمورة فى التاريخ السياسى الطويل للملك حسين منذ نعومة أظافره ، وحتى وافته المنية فى فبراير ١٩٩٩م .

الملك حسين .. مكيافيللى العرب

عندما قامت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان الملك حسين لا يزال ابن ثلاثة عشر عاماً .. وعلى أثر هذه الحرب قام جده عبد الله بضم الضفة الغربية لنهر الأردن بما فى ذلك الخليل وأريحا ونابلس والقدس الشرقية .. وقد كان تزدده المبالغ فيه إلى الصهاينة سبباً فى إثارة حفيظة غالبية الزعماء العرب واستعدائهم.

وفى نفس السياق استمر عبد الله فى تدعيم علاقاته بإسرائيل. ومن ناحية أخرى حاول ازدراء رعاياه الفلسطينيين الجدد مظهراً عدم احترامه أو حتى ثقته بالزعماء العرب الذين تجمعوا ضده وهددوا بطرده من جامعة الدول العربية .

ونظراً لعدم وجود خيارات أخرى أمامهم وانقسامهم على أنفسهم رحب الفلسطينيون بتمثيل عبد الله لهم ، وعقب ذلك مباشرة رعايا عبد الله بين أردنيين وفلسطينيين .

وفى يونيو ١٩٤٩ غير عبد الله اسم البلاد من شرق الأردن إلى المملكة الأردنية الهاشمية ، مما تعكس تطلع عبد الله إلى امتداد مساحة بلاده، وليس تواجد السكان داخل حدودها فحسب وفى عام ١٩٥٠ أحس عبد الله والأردنيون بالتأثير الكامل للتسعمائة ألف فلسطينى من سكان الضفة الغربية وما يقرب من خمسمائة ألف من اللاجئين الفلسطينيين ، فالفلسطينيون الذين منحهم عبد الله حقوق

المواطنة الكاملة فى عام ١٩٤٨ فاق عددهم عدد الأردنيين بنسبة اثنين إلى واحد .

ونظرا لأنه كان هناك عدد قليل للغاية من الأردنيين يعيشون غربى النهرى ، فقد تركزت التوترات الاجتماعية المثيرة بين السكان الأردنيين المحليين والفلسطينيين الذين اندمجوا معهم فى الضفة الشرقية ، حيث كان رعايا عبد الله الأصليون يمثلون الحدود السكانية .

وتفاقمت عداوتهم للفلسطينيين ، الذين سرعان ما تحول كثيرون منهم بحكم أنهم نتاج مكتمل النضج لسواحل البحر المتوسط أو المشرق ، إلى الطبقات المهنية، حيث أصبحوا تجارا وملاك أراضى وحرفيين مهرة وأصحاب محلات . ونظرا للفجوة الاقتصادية الكبيرة التى ظهرت بينهم وبين الأردنيين الأقل مهارة ، فقد أصبح الفلسطينيون ضيوفا غير مرغوب فيهم ومتهمين بحرمان الأردنيين من مكانتهم وحقوقهم كأسياد لبلادهم ، ومن جانبهم لم يشعر الفلسطينيون بولاء كبير أو عرفان بالجميل للأردن.

وكان المتعلمون والمهرة منهم يمثلون خطرا على مملكة عبد الله وغير أنه انطلاقا من اعتبار أنفسهم أفضل وأرقى من الأردنيين على نحو مطلق ، كان الفلسطينيون ممن ينتمون إلى الطبقات الوسطى والعليا ، يرون أنه من المستحيل تصور أن يحكمهم حاكم " بدوى " ،

أما بقية الفلسطينيين - غير المهرة ، والأميين غالبا ، والقطاعات الفقيرة عادة من اللاجئين - قلما شعروا بالولاء لعبد الله حتى على أساس المصلحة الاقتصادية . ولأنهم كانوا يعتبرونه صنيع إسرائيل وأصل مصيبتهم وسببها ، فإنه لم تكن بالنسبة لهم سوى حاكم أجنبى آخر.

وبالنسبة لعبد الله ، فإنه لم يكن يثق بالفلسطينيين ولا يحترمهم على وجه الخصوص ، غير أنه فى الوقت نفسه ، كانت مصالحة السياسية ، والإقليمية والمحلية تتطلب أن يكون له قاعدة بين أولئك الذين يحتقرونه على الأقل ، وبحصوله على بعض التأييد من الفلسطينيين المميزين ، حاول عبد الله محو أى شعور بوجود كيان فلسطينى منفصل داخل مملكته . وتم استبعاد التاريخ والثقافة الفلسطينية وكذلك علم فلسطين من المدارس والمنتديات العامة .

ودفاعا عن مصالحة الخاصة ، استنكر عبد الله النزعة الانفعالية الفلسطينية باعتبارها " ضربة موجهة لمعنى الوحدة المقدسة فى ضمير كل عربى " غير أن الحاج أمين الحسينى ، الذى كان يضطرم غيظا فى منفاه، لم يكن ليدع الكيان الفلسطينى يموت .

وفى اليوم العشرين من شهر يوليو عام ١٩٥١ ، غادر عبد الله عمان متوجها إلى القدس لأداء صلاة الجمعة ، وكان على علم بمؤامرة

لاغتياله . وكان السفيران الأمريكي والبريطاني قد توسلا إليه ألا يذهب إلى القدس وخاصة المسجد الأقصى .

ولكن عبد الله كان يدرك أن لن يستطيع دمج الضفتين الشرقية والغربية معا بالاختباء في عمان ، وقبيل الظهيرة مباشرة ، بمجرد أن عبر عبدالله عتبة المسجد اغتاله صبي يدعى مصطفى شكرى كان ينتمى إلى جيش الخلاص القادم التابع للحاج أمين الحسينى ، وفى أعقاب اغتيال عبد الله ، تحول العداء الكامن بين الأردنيين والفلسطينيين إلى عداء علنى ، حيث هاجم العرب عربيا آخرين بينما فر الفلسطينيون الذين يحملون السلاح باسم الحاج أمين إلى التلال الشمالية وجنود الفيلق العربى فى أثرهم .

وأخذ الشاب اليافع حسين ، الذى كان يرتدى غطاء الرأس ذا التربيع الحمراء والبيضاء الذى يرتديه البدو ، يتحول فى أرجاء الضفة الشرقية طلبا للمساعدة ، وعملا بتقاليد أهل الصحراء ، راح يتودد إلى الشيوخ المحليين ويقوم بزيارتهم ، ويعرض خدماته على من يرى أن ولاءهم له فى المستقبل من الأمور الحاسمة . ولكن طلال ، والد حسين وأكبر أبناء عبد الله ، كان هو الملك .

وكان طلال يعانى من الوحدة وتقلب المزاج ، وكان مصابا بالفصام. وكثيراً ما كان يسقط صريع نوبات من الهياج ... وفى الحادى عشر من أغسطس عام ١٩٥٢ ، اصدر البرلمان قرارا بخلعه عن

العرش ، لخطورة حالته ، وكان نايف ، الابن الثانى لعبد الله ، الذى لم يكن يصلح لقيادة دولة وتسيير أمورها ، والذى كرس حياته لمطاردة النساء ، غير جدير بتولى مقاليد الحكم .

وهكذا أصبح حسين بن طلال ملكا للمملكة الأردنية الهاشمية وهو فى سن السادسة عشرة . وبعد فترة قصيرة من الوصاية على العرش والقيد فى كلية ساند هيرست بلغ حسين السابعة عشرة من عمرة ، واعتبر عمره ثمانية عشر عاما بحساب التقويم الهجرى ، حيث وقف أمام رعاياه ليحلف اليمين كملك للبلاد .ولأن القدر فرض عليه تبعات البلوغ ، فإنه لم يمر مطلقا بمرحلة المراهقة .

وقد اتسم الملك حسين بثقته الطبيعية فى نفسه كملك ويتضح ذلك من خلال إحساس طاغ بالكرامة والنظام ، ونظرا لأنه ينتمى مباشرة إلى سلالة النبى ﷺ وباعتباره الحفيد الأكبر للرجل الذى أشعل نار الثورة العربية فقد كان الملك حسين من أقرب الحكام الحاليين فى الشرق الأوسط إلى العرب . ومع ذلك فإنه أكثرهم ميلا إلى الغرب . كانت لغته الإنجليزية تخلو من الأخطاء نتيجة ما تلقاه من تعليم فى إحدى المدارس التبشيرية فى عمان ، وكلية فيكتوريا فى الإسكندرية وكلية ساند هيرست .

وهناك زوجتان غربيتان من بين زوجاته الأربع ، اللاتى تلقين تعليمهن جميعاً فى الغرب .

وفى العاشر من نوفمبر ١٩٥٨ تعرضت الطائرة التى كان يقلها الملك حسين وهو فى طريقه لقضاء إجازته فى أوربا للانزلاق بسرعة جنونية صوب الحدود الأردنية حينما أصدرت دمشق أوامرها له بالهبوط أثناء تحليق الطائرة فوق الأجواء السورية ، مما كان سيودى بحياته .

وفى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ ، كانت حياة الملك حسين فى أيدى القوميين العرب المرتبطين بعبد الناصر. وداخل قصره ، اكتشف أن طباخ الملك حسين كان عميلا لعبد الناصر بعد أن قتل خمسة عشر قطة من قطط القصر التى كان يجرب فيها جرعات مختلفة من السم . وقام شخص آخر بوضع حامض فى زجاجة نقط الأنف الخاصة بالملك ولم يكتشف ذلك إلا حينما قامت إحدى مديرات المنزل التى كانت تصب ما تبقى فى إحدى الزجاجات فى زجاجة أخرى بملاحظة تآكل الجزء العلوى من القطارة.

وكثيرا ما كانت تحاك المؤامرات أيضا خارج القصر، فأثناء توقفه لتفقد موقع جامعة عمان الجديد ، نجا الملك حسين من محاولة تفجير قنبلة وضعت داخل مكتب رئيس الوزراء ، حيث كان الملك سيلتقى بأحد عشر شخصا قتلوا جميعا عند انفجارها. وبحلول عام ١٩٦٠ ارتكزت جهود الملك حسين على إظهار أخطار الشيوعية ، والتى ترهب المسلمين والغرب على حد سواء وهكذا وضع الملك حسين نفسه فى مراكز السياسة الأمريكية فى العالم العربى .

ونتيجة لذلك ، كانت الولايات المتحدة تقوم بضخ الأموال بانتظام داخل الاقتصاد الأردنى . وقد جعل المصدر الجديد للمال وصورة البطل العربى الذى يمكن الدفاع عنه والذى يقف فى مواجهة الزحف الشيوعى ، حياة الملك حسين أكثر سهولة إلى حد ما .

بل إنه أبدى استجابة مقبولة للقومية العربية شريطة الإبقاء على الحدود العربية القائمة مشيراً ببلاغة إلى أن قوة العرب تكمن فى التنوع والتباين ، وأن وجود مزيج من النظم الملكية والجمهورية يعطى قوة وحيوية للأمة العربية بأسرها.

وفى عام ١٩٦٤ ، فكر عبد الناصر فى تكوين منظمة التحرير الفلسطينية ككيان يجمع الفلسطينيين المشتتين ووافق الملك حسين على مضض ، ولكن بشرط ألا تصبح منظمة التحرير الفلسطينية منافسا لسلطته التى يمارسها على الفلسطينيين فى الأردن . ولكنه فشل فى الحصول على تعهد بعدم قيام الفدائيين الفلسطينيين باستخدام الأراضى الأردنية فى الإغارة على إسرائيل .

وكانت جماعات الفدائيين من الضفة الغربية تخترق الحدود الإسرائيلية وتوجه ضرباتها ، ثم تنسحب داخل الأردن . ونظرا لخشيته من الأعمال الانتقامية قام الملك حسين بوضع جيشه البدوى على الحدود لقطع الطريق على الفدائيين الذى يمرون بين الأردن وإسرائيل ، وفى المحصلة النهائية قام الجيش بقتل أعداد من

الفدائيين الفلسطينيين يفوق ما قتله الإسرائيليون ، بيد أن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لحكومة إسرائيلية لا تتحمل الحدود التى يحكم الملك حسين بموجبها .

ومع مشرق اليوم الثالث عشر من نوفمبر ١٩٦٦ ، كانت قوة إسرائيلية من أربعة آلاف رجل وخمس دبابات من طراز باتون تقعقع بأصواتها المرتفعة فى طريقها صوب قرية السموع بالضفة الغربية . وباسم تحقيق الأمن ضد الفدائيين ، قام الجنود الإسرائيليون باستخدام أسلحة عوزى فى إخراج مواطنى السموع المذعورين إلى الشوارع وقامت الفرق الإسرائيلية ، أمام ناظريهم ، بتدمير المنازل ، وعيادة ومدرسة ومسجد القرية. ثم انسحب الإسرائيليون ، مخلفين وراءهم ثمانية عشر قتيلا فلسطينيا من رعايا الملك حسين .

وراح سكان الضفة الغربية يرددون عبارات الشجب ضد الملك حسين لإحجامه عن مهاجمة إسرائيل . وأخذت مصر وسوريا فى توبيخه وتعنيفه . وبين عشية وضحاها انفجرت أحزان الفلسطينيين المكبوتة ومشاعرهم الغاضبة ضد نظام الملك حسين وخرج رعاياه الثائرون من الفلسطينيين إلى الشوارع ، وأخذوا فى انتزاع صور الملك من الأماكن العامة وتمزيقها ، بينما كانوا يصرخون بعبارات الاتهام ضد العرش الهاشمى .

وكان الدخول فى حرب مع إسرائيل هو آخر ما يريده الملك حسين ، ومثل عبد الله من قبله ، كان يسعى إلى التوصل إلى تسوية مع الدول الصهيونية . بيد أن هذا الخيار تلاشى بعد أحداث السموع، على الأقل فى الأمد القريب . ومع الدعم والتأييد الكاملين من العالم العربى . كان فلسطينيو الأردن يطالبون بالدم الإسرائيلى ولم يكن بوسع الملك حسين القيام بأى شىء سوى توزيع شحنة أخرى من شحنات الأسلحة الأمريكية على الفيلق العربى .

وخلال الستينيات بذل الملك حسين غاية جهده فى العناية بمعنويات قواته ورفاهيتها ، ولم يكن يمر أسبوع واحد تقريبا فى عمان دون أن تكون هناك فرحة التقاء الملك بأنصاره العسكريين وعلى رأسها الفيلق العربى البدوى ولكن حتى الفيلق العربى لم يكن يستطيع حماية الملك حسين من الأحداث الدائرة خارج نطاق سيطرته .

وفى شتاء ١٩٦٧ وبينما كان عبد الناصر على شفا الحرب مع إسرائيل عن طريق المخادعة ، أصبح حسين واقعا فى شرك الوحدة العربية أكثر من أى وقت مضى. فقد كانت الإدارة الشعبية ، خاصة فى الضفة الغربية ، تطالب الملك حسين بدعم عبد الناصر فى تحديه لإسرائيل . وإدراكا منها بأنه يواجه قدرة ، رأى الملك حسين أنه أدخل عبد الناصر الحرب فسيتعين عليه إما السير معه أو يواجه

حربا أهلية مع الفلسطينيين داخل حدوده وفى نهاية مايو ١٩٦٧ ، استسلم الملك حسين ودخل عرين الأسد مع جمال عبد الناصر.

وفى صبيحة الثلاثين من مايو اتجه الملك حسين إلى القاهرة مرتدياً الزى العسكرى ووقع مع ناصر معاهدة للدفاع المشترك مدتها خمس سنوات وقد طيرت إذاعة القاهرة النبأ على الفور، وحينما عاد إلى عمان خرجت الجماهير فى تظاهرة ضخمة تقديراً لمليكهم المبجل.

يبدو أنه فى عام ١٩٦٧ لم تستمر القوات الأردنية فى الحرب سوى ثلاثة أيام فقط ، حيث دمر العدو الطائرات الأردنية المقاتلة جميعها باستثناء واحدة ، ولم يتبق للملك سوى قواته البرية . وطبقا لبنود اتفاق الملك حسين مع عبد الناصر، كانت جميع هذه القوات تحت قيادة اللواء المصرى عبد المنعم رياض .

وفى اليوم الثانى للحرب ، أصبح رياض متشائما ، وحث الملك حسين على سحب كل قواته إلى الضفة الشرقية وأن يسعى للسلام ، ورفض حسين ذلك وأصدر رياض أوامره بالانسحاب ، ونقض حسين هذا الأمر وألغاه ، فكان الجنود الأردنيون الذين تتجاذبهم أوامر قائدين يتقدمون ويتقهقرون ويقاتلون أحيانا ويستسلمون أحيانا أخرى نتيجة لحالة الفوضى . وانسحبت الوحدة شديدة البأس التى كانت تسيطر على مدينة القدس القديمة المسورة ولم تترك سوى بضعة رجال من القناصة .

وفى ثالث أيام الحرب فقد حسين القدس وجميع أراضى الضفة الغربية . وهكذا كلفته حاجته إلى إثبات ولائه للقضية العربية ميراث عبد الله. وانتقلت المدن العربية الآهلة بالسكان مثل بيت لحم والخليل ورام الله ونابلس من أيدى الأردن إلى إسرائيل ، وخرجت القدس ، بما فيها قبة الصخرة المقدسة ، من قبضة الهاشميين . وكان إحساس الملك حسين بالعار واليأس أفظع من أن يلاحظه المرء . فقد يتجول على نحو مستمر فى أرجاء مملكته برفقة عدد كبير من الحرس من قوات البدو ، وكان نادرا ما يخلع عنه زيه العسكرى .

وكان الضغط العصبى والعاطفى يدفعه إلى أن يصر على أسنانه بقوة لدرجة أنه اضطر فى يناير ١٩٦٩ إلى إجراء عملية جراحية بالفك فى لندن. وكان الأردن يعانى أيضا مثلما يعانى الملك حسين . فعلى الصعيد السياسى ، دفعت حرب يونيو بمائتين وخمسة وخمسين ألف لاجئ فلسطينى آخرين إلى داخل المملكة ، جاءوا محملين بغضبهم وحنقهم . وعلى الصعيد الاجتماعى ، خسر الأردن سكان الضفة الغربية الأفضل تعليما والأكثر مهارة ، الذين يمثلون العمود الفقرى للخدمات المدنية والحياة الثقافية والفكرية فى الأردن .

وعلى الصعيد الاقتصادى ، ضاع ٨٥ بالمائة من إنتاج المملكة الزراعى و٤٨ بالمائة من إنتاجها الصناعى مع ضياع الضفة الغربية .

لقد تحطم اقتصاد الأردن . ولكى ينقذ ما تبقى من مملكته ، كان على الملك حسين أن يحصل على أموال جديدة . ومع احتفاظه بالمساعدات الغربية ، جمع مائة واثنى عشر مليون دولار أخرى تقريبا من ليبيا والنظم الملكية فى الخليج وسعى إلى توجيه المتعلمين من سكانه نحو الحصول على وظائف فى دول الخليج النفطية لكى يوفروا الأموال اللازمة لاقتصاد الأردن المتداعى من خلال التحويلات. وعاد الملك حسين بالتدريج إلى اقتصاده المحفوف بالمخاطر . بيد أن ذلك لم يعوضه عن الضفة الغربية الثمينة .

وكان يرغب بشدة فى بدء التفاوض مع إسرائيل أملا فى استعادة أراضيه غير أنه لم يكن يستطيع الالتقاء علنا بالإسرائيليين خشية إثارة سخط الراديكاليين الفلسطينيين . وقد فسر ناشر إحدى الصحف العمانية بقوله : " فى اللحظة التى يجلس فيها الملك مع اليهود ، فإنه يوقع تفويضا بقتله . فمن المؤكد أنه سيقتل على يد أحد الفلسطينيين تماما كما قتل جدة " .

ومع ظهور منظمة فتح بقيادة ياسر عرفات فى مقدمة الصفوف ، استقر الفدائيون فى مملكة حسين وأدى قيام منظمات الفدائيين بإقامة أسوار جديدة من الأسلاك الشائكة وقيام فدائيون يحملون الأسلحة الآلية عند المداخل إلى إبعاد الموظفين الأردنيين عن المخيمات الفلسطينية . وبالتدريج، أحكموا سيطرتهم الكاملة على هذه المخيمات ، وأنشأوا دولة داخل الأردن .

ويرفضهم تذكرة الملك حسين بأن الأردن قد أتاح للفلسطينيين المشردين فرصا تفوق كثيرا ما يتمتعون به فى سائر الدول العربية ، قام الفدائيون بشن حملة شعواء ضد محاولات الملك حسين لإخضاعهم للحكم الأردنى ، وبحلول عام ١٩٦٨ ، كان حسين يواجه عشرين ألفا من الفدائيين المسلحين وعددا من السكان .

وبينما كان الملك حسين يكافح للإمساك بزمام سلطته ، كان الفدائيون الذين يحملون أسلحتهم الآلية يجوبون شوارع عمان والأردن ويختالون أمام الجنود ورجال الشرطة الأردنيين .

ورد الملك حسين على جرأة الفدائيين بإصدار أوامره بوضع حواجز للطرق وعربات تفتيش معرضا نفسه لمزاعم الفدائيين بأنه يعتزم وقف العمليات الفدائية ضد إسرائيل . ونظرا لعدم ارتداعهم ، أصدر الملك أوامره بتشكيل قوات من الجنود الأردنيين لجمع الشبان الفلسطينيين من الشوارع وترحيلهم إلى معسكرات صحراوية نائية للحيلولة دون انضمامهم إلى صفوف الفدائيين وكان الملك حسين والفدائيون يدورون حول بعضهم البعض ويوجه كل منهما الطعنات والكلمات الاستكشافية للآخر ... ففى ديسمبر ١٩٦٩ ، أوقف الفدائيون زوجة الملك، الأميرة منى ، أثناء تجوالها بالسيارة فى شوارع عمان واحتجزوها ولم يطلق سراحها إلا بعد إصدار أوامر عاجلة من الحرس الملكى .

وفى العاشر من فبراير ١٩٧٠ ، أصدر الملك حسين مرسوما من أحد عشر بنداً حظر فيه على الفدائيين حمل الأسلحة داخل المدن وأمر فيه الفدائيين بترخيص عرباتهم وحمل بطاقات هوية . وكان ذلك كافيا لإشعال أعمال شغب استمرت أربعة أيام وأسفرت عن مقتل ثمانية عشر شخصا . وسيطرة الفدائيين على نصف عمان . وفى أواخر يونيو ١٩٧٠ ، اصطدم الجيش والفدائيون مرة أخرى حينما قام أحد الفدائيين بإطلاق النار على ضابط بالجيش الأردنى من إحدى الوحدات شديدة الولاء للملك .

وفى اليوم التالى وجه الفيلق العربى نيران غضبه إلى معسكرات الفدائيين التى رد عليها الفدائيون بالمثل . وازداد العنف بين جيش الملك حسين والفدائيين وكافة أرجاء البلاد مع امتداد القتال تجاه عمان . وفى التاسع من يوليو ١٩٧٠ ، ترك الملك فيلته الصيفية خارج عمان وانطلق نحو العاصمة .. وبينما كان ينعطف فى إحدى الطرق ، دخل بسيارته فى كمين للفدائيين الفلسطينيين الذين أخذوا فى إطلاق النار من رشاش روسى الصنع عيار ٥٠ مم على موكب السيارات المرافق له؛ والمؤلف من ست عربات لاندروفر مصفحة وسيارة الملك المرسيدس ، ورد الملك حسين على النيران بإطلاق الرصاص من مسدسه عبر نافذة السيارة ، ونجح فى النهاية فى الفرار بفتح باب السيارة والتدحرج نحو خندق على الطريق .

وفى اليوم التالى رد الجيش الإهانة التى لحقت بمليكه بصب وابل من القصف المدفعى على مخيمات الفلسطينيين . وفقد الملك حسين السيطرة على مملكته فمع تصاعد أعمال العنف ، قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باقتحام فندق انتركوننتال الفخم فى عمان واحتجزت اثنين وستين من النزلاء الأجانب كرهائن . كذلك قام الفدائيون اليساريون بالاستيلاء على فندق فيلادلفيا واحتجزوا خمسة عشر رهينة أخرى قبل هجومهم على إذاعة عمان . وتصاعد غضبهم وثورتهم . فقاموا بسرقة السيارات ونهب المنازل .

وكان الملك حسين يتجاذبه قطبان - قطب التوصل إلى تسوية مع الفدائيين وقطب الحرب الشاملة - ولكن القرار لم يكن له وحده . فجيشه البدوى المعتز بكبريائه والذى لحق به الخزى بسبب الإهانات التى وجهها إليه الفدائيون ، كان على وشك إعلان التمرد والعصيان ، فحينما كان الملك يتفقد إحدى الوحدات المسلحة فى الزرقاء ، رفعت إحدى الدبابات صديرية للثديين فى هوائى الراديو الخاص بها ، كإشارة بالغة القسوة من جيش يرى أنه يعامل كامرأة.

ولدى عودته إلى قصره ، تحمل الملك الذى كان عمره أربعة وثلاثين عاما لوم قواده ثم مناشدتهم له لإطلاق العنان للجيش لضرب الفدائيين . وصرح الملك الذى بدا عليه الاكتئاب بوضوح ، فى حفل عشاء:"إننى لا أستطيع أن أكبح جماح جيشى أكثر من ذلك ".

وقد أجبر الملك حسين على اتخاذ قراره في السادس من سبتمبر ١٩٧٠ ، حينما كانت طائرة شركة تي دبليو إيه رقم ٧٤١ تئز فوق ألمانيا الغربية ، فعند حدود لوكمسبورج ، قفز فدائيون من مقاعدهم وأمروا قائد الطائرة بالتوجه صوب البحر المتوسط . وبعد ساعات كانت الطائرة البوينج ٧٠٧ تدور في سماء حالكة السواد فوق الأردن ، وفجأة بدأت الكشافات وأضواء عربات الجيب توضح الطريق عبر الأرض الصحراوية ذات الصخور الصلبة .

وهبطت الطائرة لتضرب بقوة فوق أحد الممرات الجوية المهجورة التي كانت تستخدم في الحرب العالمية الثانية يعرف باسم ممر داوسون ، وفي غضون أربعين دقيقة أخرى ، كانت أصوات محركات طائرة شركة سويس أيردي سي -٨ التي تم اختطافها غربي باريس تئز في السماء نفسها حالكة السواد .وأسرع الرجال حاملوا الكشافات الضوئية مرة أخرى وعادت الكشافات الأمامية للسيارات للإضاءة من جديد وهبطت الطائرة للتوقف على بعد خمسين ياردة فقط من الطائرة البوينج ٧٠٧ .

وبعد ذلك بثلاثة أيام تم اختطاف طائرة بي . أو. إيه . سي ١٠. كانت في طريقها بين البحرين ولندن لتأخذ مكانها فوق " مهبط طائرات الثورة ".

ومع الأزمة الناشئة عن مصير ثلاث طائرات وأربعمائة وتسعة وثلاثين راكبا ، بدا الأمر كما لو أن حكومة الأردن لم يعد لها وجود . بل إن مفاوضى الصليب الأحمر كانوا يتعاملون مباشرة مع الفدائيين وليس مع الحكومة .

وفى أحد المؤتمرات الصحفية ، قال متحدث باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عرف نفسه باسم بسام فقط ،" إن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئا لإيقافنا وإذا اقترب الجيش من الطائرات، فسيتحمل النتائج المرتبة على ذلك . نحن نخاطب من يطلقون النار وليس الحكومة " .

وفى الثانى عشر من سبتمبر أطلقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين سراح جميع الرهائن باستثناء ستة وخمسين منهم ، وفى هذا الفصل من مأساة ممر داوسون ، قام المختطفون بتفجير الطائرات الثلاث المعبأة بالمتفجرات فى السماء الصافية غير الملبدة . وتوجه الركاب الذين أطلق سراحهم إلى فنادق فى عمان واختفى بقية الرهائن فى المعسكرات الفلسطينية وأمضوا الأيام التسعة الأخيرة من أسرهم وسط الحرب الدائرة بين الملك حسين والفلسطينيين .

وفى السادس عشر من سبتمبر ١٩٧٠ توجه الملك حسين إلى إذاعة عمان لإعلان الأحكام العرفية " لقد أصبح لزاما علينا اتخاذ

سلسلة من التدابير لفرض القانون والنظام لحماية أرواح المواطنين وممتلكاتهم وشرفهم" فكان أيلول الأسود .

وأغلقت عمان ، ووضع أصحاب المحلات أقفالا ثقيلة على أبواب محالهم وأسرعوا بالعودة إلى بيوتهم ، وتوقفت الحافلات وسيارات الأجرة . وترك رجال الشرطة مواقعهم . وأغلق المطار. وقبيل طلوع فجر السابع عشر من سبتمبر ، تحركت دبابة من فيلق حسين العربى وعشرات من حاملات الجنود المصفحة من الاستاد الرياضى الذى تكلف ملايين الدولارات فى الجزء الشرقى من المدينة وبدأت فى الزحف على المدينة .

وفى غضون دقائق ، كانت الطوابير الطويلة المغبرة تجوب الشوارع الضيقة والموازية لجبل عمان وجبل وحدة وتنتشر فوق تلال عمان السبعة ذات الألوان القاتمة . وفى مدينة مبنية بالحجر الجيرى، قام الجيش المزود بالآليات بشق طريقه بتوجيه وابل من قذائف المدفعية التى ضربت بعنف مواقع الفلسطينيين المحصنة وهدمت مبانى كاملة وسوتها بالأرض للحيلولة دون وجود أى مواقع للقناصة أعلى المبانى ، ورد الفدائيون الأكثر تفوقا ، والذين كانوا يقاتلون من وراء حواجز من أكياس الرمال وحواجز الشوارع بوابل من نيران الرشاشات والصواريخ المضادة للدبابات .

وكان الملك حسين يتوقع أن يسفر هجومه السريع المفاجئ عن نصر مؤزر خلال ساعات . وكان يريد أن تكون الحرب قصيرة ، لأن صراعاً طويلا ضد الرمز الحالى للعروبة كان من شأنه أن يوجه الرأى العام العربى الواحد ضده. ولكن بدلا من الاستسلام تمركز الفدائيون خلف جدران مئات المنازل ذات الحجارة السميكة المنتشرة فى أنحاء عمان والمدن الأخرى .

وساعة بعد ساعة ، ويوما تلو آخر ، ظل الجانبان مشتبكين فى القتال بينما كان ياسر عرفات والملك حسين يسعيان على نحو محموم للتوصل إلى صيغة من شأنها إنقاذهما . بيد أنه حينما دعا الملك إلى وقف إطلاق النار أصدر قادته " إنذاراً نهائياً " للفدائيين بالاستسلام أو التعرض للإبادة . وباستخدام تفوق قوتهم ، قام جيش الملك حسين بشق طريقه عنوة من منزل إلى آخر بحثا عن الفدائيين الفلسطينيين وكان الأردنيون والفلسطينيون على السواء يقبعون وهم فى مسيس الحاجة للطعام والماء ، فى الأدوار السفلى وداخل الغرف .

وبتصميمهم الذى لا رجعة فيه على القضاء على الفدائيين قضاء مبرما، قام جنود وحدات الصفوة التابعة لحسين بإحياء العادة البدوية القديمة بتكسير أصابع أسراهم حتى لا يستطيعوا إطلاق النيران عليهم مرة أخرى بعد فترة وجيزة ، ومع ذلك استمرت عجلة الحرب فى الدوران .

وصمد الفدائيون باتحادهم مع السكان الفلسطينيين . ومن ثم أصبحت المخيمات أهدافا رئيسية لهجوم الأردنيين . ومنذ الأيام الأولى للحرب زحفت الدبابات نحو مخيمات اللاجئين المعروفة بأنها معاقل قوية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفتحت عليها النيران . وتحولت أجزاء من مخيم وحدات اللاجئين الذى تعمه الفوضى على الفور إلى مجمع للموتى والقتلى . وفى مخيم الحسينى ، الذى كان يسكنه خمسة وأربعون ألف فلسطينى تحولت عشرة أكواخ إلى أجزاء متناثرة. وبعد أربعة أيام متتالية وتحت وابل القصف المدفعى ، لم يبق قائما من المنازل الآيلة للسقوط سوى عشرين بالمائة فقط . ومع ذلك لم ينكسر الفدائيون .

وبالنسبة للملك حسين الذى كان يؤمن بالقضاء والقدر ، بدا الوضع ميئوسا منه . فقد تبين أن سائقه الخاص واحد من الفدائيين، وحاول طباخ آخر من طباخيه أن يدس له السم فى الطعام ، وحينما ألقى القبض على هذا الطباخ وجدوا فى حوزته قنبلة يدوية . وهكذا قد أعد نفسه لنهاية حكم أسرته ، أمر الملك حسين جميع نساءه وأطفال عائلته بالتوجه إلى العقبة .

وطوال فترة صيف عام ١٩٧٠ ، وبينما كانت الأحداث فى الأردن تتجه نحو أيلول الأسود ، كان الرئيس ريتشارد نيكسون يعد ويخطط للرد الأمريكى على ذلك ، ومع اختطاف طائرة شركة تى دبليو إيه فى شهر سبتمبر ، تم وضع طائرات الطوارئ الأمريكية

التابعة للقوات العسكرية الأمريكية فى شرقى البحر المتوسط وأوروبا فى حالة استعداد للقتال ، وفى الوقت الذى بدأت فيه الحرب الأهلية ، كانت الولايات المتحدة قد حشدت قدرا كافيا من القوة فى المنطقة لدعم الملك حسين ، وتبعتها إسرائيل من خلال القيام بمناورات عسكرية واسعة على طول حدودها مع الأردن ، وعلى الجبهة العربية ، تردد العراق ثم قرر سحب قواته المتمركزة فى شمال الأردن ، ولم يتبق سوى سوريا . ولكن حينما عبرت الدبابات السورية الحدود الأردنية من الشمال ، صعدت الولايات المتحدة حالة الاستعداد للقتال مرة أخرى كتحذير للسوفيت لإبعاد السوريين ثم كانت وساطة عبد الناصر ففى السابع والعشرين من سبتمبر ، وقف عبد الناصر مبتسما بين عرفات وحسين فى قاعة ألف ليلة وليلة بفندق هيلتون القاهرة ليعلن انتهاء الحرب بين الملك والفدائيين . وفى السابع من نوفمبر قام آخر الفدائيين بتسليم سلاحه لحسين وغادر وسط عمان مكرها . وأصبح يفصل الملك حسين عن الفدائيين وعن الكثيرين من سكانه الفلسطينيين خمسة وثلاثون ألف قتيل وجريح ونهر من الدماء وقد انتصرت الروابط الروحية التى أقامها الهاشميون مع البدو وانحياز عدد كبير من الفلسطينيين إلى جانب الملك ضد منظمة التحرير الفلسطينية مما سمح له بالحفاظ على التوازن السياسى .

وفى النهاية لم تفعل الدول العربية شيئا لمساعدة الفدائيين المحصورين ، المحببين إلى قلوب الجماهير العربية .

غير أن حسين خرج من الحرب ضعيفا من كل النواحى فيما عدا علاقته بالبدو التابعين له . فالإسرائيليون الذين استولوا على أراضيه أصبحوا يحتقرونه لما أشاع من فوضى فى مملكته ، والسوريون والعراقيون بحكومتيهما الثوريتين كانوا يكرهونه ويتطلعون للاستيلاء على أجزاء من صحاريه لأنفسهم ، والأمريكيون، الذين استمرت علاقته بهم ثابتة طوال أربعة عشر عاما ، قاموا بتعويضه عن الأسلحة التى خسرها بمعدات عتيقة تماما .

ويرغم أن الدول العربية كانت ترقب بنوع من الرضا قيام الملك حسين بالقضاء على الفدائيين الفلسطينيين الذين خرجوا عن نطاق السيطرة إلا أنهم وصفوه بالخيانة وظهرت على الملك الذى كان لا يزال فى الخامسة والثلاثين من عمره ، الآثار الجسدية لأزمة أخرى، حيث كان يخضع لفحوص طبية فى إحدى مستشفيات لندن لعدم انتظام ضربات قلبه .

وفى أعقاب الحرب الأهلية ، اتجه الملك إلى رعاياه الفلسطينيين الذين أيدوه وساندوه ووضع الذين وقفوا ضده منهم تحت المراقبة الشديدة ، وفى الوقت نفسه أخذ فى البحث عن وسيلة للتوصل إلى تسوية مع إسرائيل يستعيد بها الضفة الغربية . ومن

وقت لآخر ، كان الملك وأبا أيبان ، وزير خارجية إسرائيل ينزلان على نحو غامض في فندق واحد في لندن . وفي أكثر من مناسبة واحدة . كان هناك قاربان ، أحدهما أردني والآخر إسرائيلي، يتعطلان عن السير مصادفة في ساعة متأخرة من الليل على مقربة من مياه خليج العقبة . وفي مارس ١٩٧٢ ، عرض الملك حسين خطته بشأن " مملكة عربية متحدة " وهي اتحاد فيدرالي لضفتي الأردن مما يتيح للفلسطينيين قدرا كبير من الحكم الذاتي تحت العلم الأردني. والواقع أن الملك حسين كان يؤكد من جديد بأحقيته في الضفة الغربية بلغة كان يأمل أن تروق للفلسطينيين المعتدلين . ولكن الرفض الإسرائيلي وأد هذه الخطة قبل أن يعرف حسين رد فعل رعاياه السابقين في الضفة الغربية .

وبينما كان الملك حسين يفكر في مستقبل مملكته وينتظر طرده من الحظيرة العربية ، كان أنور السادات يدبر حرب ١٩٧٣ العربية ضد إسرائيل . ولم تكن حرب مصر هذه المرة حرب الأردن . فقد وافق الملك حسين ، الذي يدرك تمام الإدراك كارثة ١٩٦٧ ، وفي آخر لحظة أن يكون بمثابة جبهة ثالثة لمصر وسوريا . غير أنه لم يفعل شيئا سوى وضع جيشه في حالة استعداد وانتظار الأحداث . وحينما التزم الجيش الأردني في النهاية بالمعركة ، كان ذلك لتبقى الجبهة الداخلية هادئة ، وليس لرفع راية الوحدة العربية . ومع خسارته لثمانية وعشرين رجلا وثمانية عشر دبابة وتسع عشرة عربة مصفحة ،

خرج الملك حسين من الحرب وهو يشعر بالرضا عن شرفه العسكرى ودون أن تمس مملكته فى الضفة الشرقية . ولكن الضفة الغربية بعيدة عن متناول يده . وإذا كان عليه إقناع إسرائيل بالتخلى عنها ، فقد كان عليه أولا إقناع الفلسطينيين بالسماح بتمثيلهم . وقد حاول منذ عام ١٩٧٦ إقناع الفلسطينيين والعرب الآخرين بأن الأردن يعد الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن يمارس الفلسطينيون من خلالها أى شكل من أشكال الحكم الذاتى . وكانت تلك رسالة موجهة للعرب الذين لا يريدون الإنصات إليها . وفى أكتوبر ١٩٧٤ ، انعقدت الجامعة العربية فى الرباط بالمغرب لتحديد من يمثل الفلسطينيين . وفى الفترة بين ١٩٧٠ إلى ١٩٧٤ كان ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية يزحفان للخروج من هوة الهزيمة التى منيا بها فى الأردن ليمسكا مرة أخر بزمام القضية الفلسطينية التى كانت لا تزال تمثل بوتقة الوحدة العربية .

وقد جاءت منظمة التحرير الفلسطينية إلى الرباط وهى ترتدى عباءة تفويض الفلسطينيين . بينما كان الملك حسين يجلس بلا حول له ولا قوة ، أعلنت الجامعة العربية ، التى كانت تتحدث باعتبارها صوت الأمة العربية ، أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى.

ومنذ عام ١٩٧٤ وحتى ١٩٨٨ ، كان الملك حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية يتصارعان حول مسألة أيهما يمثل فلسطينيى

الضفة الغربية ، الذين لا يزالون يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلى بعد انقضاء سبع سنوات على حرب ١٩٦٧ .

وكان التنافس حاسما بالنسبة للملك ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، فبالنسبة له ، كان اعتراف الفلسطينيين بحقه فى التفاوض مع إسرائيل نيابة عنهم من شأنه أن يهيئ له فرصة استعادة الضفة الغربية . وبالنسبة لعرفات ، كان إبرام اتفاق معه يعنى تسليم سيطرة الفلسطينيين على مصيرهم إلى الشخص الكريه الذى قام بهزيمة الفلسطينيين عام ١٩٧٠ . وبالنسبة لفلسطينى الأردن والضفة الغربية ، كان يمثل فرصة سانحة لكسر سيطرة إسرائيل على الأراضى الفلسطينية ، بينما كان عرفات يتمسك بشدة على نحو لا سبيل إلى مقاومته بوعده بدولة فلسطينية .

وهكذا فإن إمكانية قبول الملك حسين كأداة تفاوض للفلسطينيين كانت ترتفع وتنخفض وفقا لظروف منظمة التحرير الفلسطينية وقدرة الملك حسين على بقاء الباب مفتوحا أمام إسرائيل دون أن ينأى بنفسه عن العرب ، وقد حدث الاختبار الحاسم الأول عام ١٩٧٩ ، حينما التقى الرئيس المصرى أنور السادات ومناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلى بالرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى كامب ديفيد ، ولم توجه الدعوة إلى الملك حسين .

وكان الملك حسين يرفض اتفاقات كامب ديفيد لأنها فشلت في معالجة أكثر الأمور الحيوية بالنسبة له - وهى مستقبل الضفة الغربية والقدس العربية - وقام جيمى كارتر، الذى أغضبه ذلك، بإرسال مستشاره للأمن القومى، زيجنيو بريزينسكى، إلى عمان لتهديد الملك حسين بشأن شحنات الأسلحة الأمريكية القادمة ولكن سايروس فانس، وزير خارجية كارتر آنذاك كان يفهم موقف الملك من حيث كونه يسير فى طريق وعر تحفه المصاعب والضغوط التى تعرض لها إبان كامب ديفيد كانت ضغوطاً شديدة فهناك المخاطر الاقتصادية المحيقة بالبلاد، والمخاطر الجسدية التى تنتظره هو شخصيا. كما أنه يعتمد اعتماداً كبيراً على المعونات السعودية، وهناك عملية التوازن الصعبة مع سوريا والعراق بالإضافة إلى المشكلات المعروفة مع الفلسطينيين.

واتباعا لخطى " جبهة الرفض العربى " قام الملك حسين بقطع علاقاته الدبلوماسية مع مصر بسبب ما اعتبره خيانة أنور السادات للقضية العربية. غير أنه بينما كان يلتزم بخط العناد والتصلب العربى، كان الملك حسين يناور ليحتل موقعا محوريا يصبح فيه لاغنى عنه. وفى أى حل للقضية الفلسطينية بالنسبة للدول العربية المعتدلة، وبالنسبة للولايات المتحدة وبالنسبة للفلسطينيين أنفسهم.

وقد تجمع ذلك فيما يبدو فى صيف ١٩٨٢ م حينما تحولت الحرب الأهلية اللبنانية إلى حرب بين إسرائيل ومنظمة التحرير

الفلسطينية . فقد كان ناقوس الموت يدق حول ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية فى الوقت الذى كان يبدو فيه الملك حسين آمنا داخل مملكته أكثر من أى وقت مضى وتحسن الاقتصاد، هذه المرة بسبب البليون دولار التى كان يحولها الثلاثمائة وخمسون ألف أردنى الذين كانوا يعملون فى دول الخليج إلى الوطن ، وأدى انتعاش السوق العقارية إلى انتشار المنازل الفخمة والشقق الواسعة ، التى كانت ملكا لكثير من الفلسطينيين ، فوق تلال عمان .

وبلغ الملك حسين حدا من الثقة حتى أنه عند طرد منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت فى أغسطس ١٩٨٢ ، وافق على بقاء ألفين من الفدائيين داخل الأردن .

وفى أول سبتمبر ١٩٨٢ ، تقدمت الولايات المتحدة ، انطلاقا من سعيها للبحث عن وسيلة لتهدئة الوضع فى الشرق الأوسط بعد الصيف الذى قامت خلاله القوات الجوية الإسرائيلية بتحويل بيروت إلى جحيم ، بمبادرة ريجان التى كانت فى جوهرها أحيانا لمشروع حسين لعام ١٩٧٠ الذى دعا فيه إلى أن يتولى الأردن مسئولية الضفة الغربية وفلسطينييها مقابل اعتراف العرب بإسرائيل . ووافق الملك حسين على الخطة ، مثلما كان سيقبل أية خطة من شأنها أن تعيد الضفة الغربية إلى السيادة الأردنية .

غير أنه لم يستطع بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية على اتفاق يسمح له برئاسة وفد أردنى - فلسطينى مشترك للتباحث مع إسرائيل . وتوجه ياسر عرفات جوا إلى عمان ، حيث مكث يومين بحث خلالهما معه كافة التفاصيل .

بيد أن ياسر عرفات ، الذى كان يواجه معارضة من فضائل منظمته التى تدعمها سوريا ، لم يستطع إعطاء موافقة منظمة التحرير الفلسطينية . وفى العاشر من إبريل ١٩٨٣ ، اعترف الملك حسين ، والدموع تترقرق فى عينية بفشل جهوده فى إقناع منظمة التحرير الفلسطينية بالانضمام إليه . وألقى باللائمة لفشل محادثاته مع منظمة التحرير الفلسطينية على أشقائه العرب . " إنه لمن المؤلم أن نرى فرقتنا التى تجعلنا هدفا لمطامح الكثيرين " .

وحينما بدا أن المرض قد أبعد الرئيس السورى حافظ الأسد - ذو المصلحة فى عرقلة التعاون الأردنى الفلسطينى - عن المعادلة السياسية ، حاول الملك حسين اجتذاب الفلسطينيين مرة أخرى إلى عملية التفاوض . وطوال عام ١٩٨٤ ، أخذ فى إطلاق سراح الفلسطينيين من معتقلاته ، والتقى بعرفات ، وعمل على تشجيع وتدعيم المشروعات الاجتماعية الأردنية فى الضفة الغربية ، وذهب إلى واشنطن للحصول على تأييدها ، وأعاد علاقاته الدبلوماسية مع مصر ، واستضاف اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى السابع عشر

فى عمان ، كل ذلك كمحاولة لإقناع الفلسطينيين بالتفاوض مع إسرائيل تحت رعايته .

ومع مطلع عام ١٩٨٥ عاد عرفات إلى عمان لتثبيت دعائم اتفاق الذى تم التوصل إليه منذ عامين كانا حافلين بالاقتناع داخل منظمة التحرير. وفى الحادى عشر من فبراير وقع الشريف حسين وعرفات اتفاقا ينص على أن الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية سوف يعملان معا للتوصل إلى مبادرة للسلام تستند إلى مبدأ مبادلة الأرض بالسلام مع إسرائيل. وبعد أن خرج من كارثة ١٩٦٧ ، وعزلة ١٩٧٠ ، ورفض ١٩٧٤ ، ها هو الملك حسين يخطى الآن بأفضل فرصة تسنح له لاستعادة الضفة الغربية .

وقد أضفى عليه الاتفاق الذى أبرمه مع عرفات نوعاً من المصداقية فى أعين العالم العربى . مما يتيح له الشروع فى التباحث مع إسرائيل ، وقد بدت الحكومة الإسرائيلية فى ظل رئاسة شيمون بيريز مستعدة لوضع التفاوض مع الأردن داخل إطار دولى كى تمنح الملك حسين قدرا آخر من الشرعية أمام العرب وهكذا بدا حسين فجأة فى وضع يسمح له بإنقاذ مملكة عبد الله الهاشمية .

بيد أن الاتفاق كان محكوما عليه بالموت منذ مولده . فقد كانت لغته مبهمة وغامضة تماما بحيث جعلت الأردنيين يتصورون وجود ارتباط دائم بين ضفتى الأردن مع تولى عمان الإشراف على

شئون الدفاع والسياسة الخارجية ، وجعلت منظمة التحرير الفلسطينية تتصور قيام " اتحاد كونفيدرالى " يتمثل فى ارتباط طوعى بين دولتين تتمتعان بالاستقلال والمساواة ويمكن فصمه بنزوة من أى منهما. ومع ذلك ، فقد تجاهل الطرفان حينذاك العيون الأساسية فى الاتفاق وبقبول وجهة نظر الملك حسين كموجه مقبول للفلسطينيين سمحت إسرائيل للملك الهاشمى أن يفوض من جديد شكلاً من أشكال السلطة على الأراضى التى خسرها فى حرب ١٩٦٧.

وبعد مرور عام واحد على توقيع اتفاق عرفات وحسين ، تفجرت الانقسامات داخل منظمة التحرير الفلسطينية حول معنى هذا الاتفاق على الملأ ويدون موافقة فلسطينية لم يكن الملك حسين يستطيع السير قدما . ونتيجة لذلك ، قام فى فبراير ١٩٨٦ بإنهاء كافة أشكال التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية التى كان يمكن أن يجعل الأردن المظلة التى يتوجه الفلسطينيون تحتها إلى أى مؤتمر دولى يتعلق بمستقبل الأراضى المحتلة .

وكانت الحكومة الإسرائيلية على وشك أن تتحول قيادتها إلى إسحاق شامير المتشدد ، ليحل محل حزب العمل الذى كان يسيطر على إسرائيل والذى كان لا يخفى على الملك حسين فهمه ومعرفته . وأخيرا قامت الولايات المتحدة بدورها فى ضرب الملك فبينما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تندفع فى اتجاه وإسرائيل فى اتجاه ، قام الكونجرس الأمريكى بتأجيل صفقة لبيع الأسلحة

كان قد وعد بها إلى أجل غير مسمى إلى أن يوافق على التفاوض مع إسرائيل . ويرغم إلغاء قرار التأجيل الذى أصدره الكونجرس ، بأمر رئاسى ، فإن هذا القيد ترك الملك فى حالة معنوية سيئة.

وحال نشوب الانتفاضة الفلسطينية فى الضفة الغربية ديسمبر ١٩٨٧ كان هناك تهوجاً من امتداد عدواها إلى الضفة الشرقية التى تقع تحت سلطة الملك حسين ،وهو ما حدث بالفعل فى شهر مايو ١٩٨٨ عندما قصدت قوات مكافحة الشغب للشباب الذى كانوا يلقون الحجارة فى الضفة الشرقية .

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع سلسلة العنف إلا حينما ذهب الملك حسين إلى مبنى التليفزيون ليعلن على الملأ تخليه عن كل حق له فى الضفة الغربية .

وحينما قامت العراق بغزو الكويت وجد الملك حسين نفسه مضطراً لعدم الوقوف إلى جانب التحالف الدولى من ناحية أولى ، حتى لا يغضب غالبية شعبه من الفلسطينيين ، ومن ناحية ثانية للمساعدات الاقتصادية التى كان يحصل عليها من العراق .

ولاحقا .. وبعد تأمين الجبهة الداخلية اندفع الملك حسين بشكل محموم لتوفير بعض الحماية من غضبة الدول العربية التى تعارض العراق ولتدعيم موقفه الدولى . أعلن بكبرياء أن الأردن

سوف يلتزم بالحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على العراق وكان من شأن هذا القرار أن يكلف الأردن ما يقدر بمائتين وثمانين مليون دولار سنويا من الصادرات بالإضافة إلى مائتين وخمسين مليونا أخرى تمثل رسوم عبور البضائع المتجهة من العقبة إلى العراق . غير أن تلك كانت مجرد مشكلة واحدة من مشكلات الأردن الاقتصادية إذ انهارت السياحة ، مما أسفر عن ضياع مائتين وثلاثين مليون دولار أخرى ، وتدفق آلاف اللاجئين بحثا عن الطعام والمأوى عبر الحدود ، وتوقفت المملكة العربية السعودية والكويت ، عن تقديم مساعداتهما الاقتصادية وقامتا بفصل آلاف الأردنيين من وظائفهم ذات المرتبات المرتفعة.وإجمالا ، قدرت حكومة الأردن أن خسارتها من جراء الأزمة ستزيد على بليونى دولار، أى ما يزيد على نصف إجمالى الناتج القومى . وبدأ الدينار الأردنى الذى كان من العملات القوية فى الانخفاض الشديد.

وأخذ الملك حسين ، الذى تأقلم مع الأزمة يشق طريقه من جديد للعودة إلى دائرة الضوء السياسى فى الشرق الأوسط ، وبعد شهور من انتهاء حرب الخليج ، بدأت بعض أموال النفط العربى تتدفق من جديد على اقتصاد الأردن المنهار. كما أن الملك حسين أخذ الفلسطينيين فى أولى جولات مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط كجزء من الوفد الأردنى - الفلسطينى المشترك الذى سعى جاهدا إلى تشكيله فى منتصف الثمانينات . وقد نجا الملك حسين من عاطفة

الغزو العراقى جزئيا لأن موقع الأردن الجغرافى يجعل المملكة الهاشمية محورا رئيسياً فى السياسة الإقليمية .

وهكذا ظل الملك حسين من أهم الشخصيات الفاعلة على المسرح العربى لسنوات عديدة حتى إنه حظى باحترام أعدائه وأصدقائه معاً .

وهكذا أيضا ظل الملك حسين معزوفة سياسية رائعة إلى أن داهمه المرض القاهر، وأثناء مرضه لم يفته أن يعود على عجل إلى بلاده ليسوى عملية توريث عائلية الحكم ، وفى كلمات حزينة أعلن قائلاً " فوق قمة معاناتى على المستوى الشخصى فإننى لأول مرة أجابه الألم فى حياتى الخاصة " واستطرد قائلا " أنه اضطر وهو فوق فراش المرض إلى التدخل لوقف إثارة الجيش الأردنى التى كانت تهدف إلى تسوية الحسابات خلال الأشهر الستة التى قضاها فى المستشفى " والتى كان يتولى خلالها شئون البلاد شقيقة الأمير حسن كولى للعهد ، حينذاك رد الحسن وهو منسحق الفؤاد نادما : " إننى أضع نفسى بين يديك ومطيعا لأوامركم الشريفة " . وكانت أوامر الملك حسين قاسية بالنسبة للحسن ، فقد أصدر قراراً بتولى ابنه الأمير عبد الله وليا للعهد بدلا من الأمير الحسن الذى كان يشغل هذا المنصب منذ عام ١٩٦٥ ، ولقد كان من الممكن أن يستمر فى هذا المنصب لولا " الخطيئة الأبدية " التى تمارسها حواء لسيدنا آدم وإلى يوم الدين عندما اقتحمت زوجته (من أصل باكستانى) علاقات

الأخوة والرحم وبدأت ترتب قصور الملك حسين لاستقبال الملك الحسن !! وتعد أبناءها ليصبحوا ورثة للعرش الهاشمي كما لو كان حسين قد مات وانتهى .. وانتهت معه ذريته .

مسكين الملك فقد بدا حياته بمأساة اغتيال جده الملك عبد الله في قلب المسجد الأقصى ويومها نجا حسين لأنه كان يرتدي وساما معدنيا على صدره أنقذه من الرصاصة التي كانت ستقضي على حياته ولأن الملك حسين كان طياراً تعلم فنون الطيران في إنجلترا ، ولأنه اختلط مع طياري المقاتلات للسلاح الجوي الملكي البريطاني ولأن هؤلاء كانوا خلال معاركهم مع الطيارين الألمان أثناء ما سمي بمعركة بريطانيا في سلسلة معارك الحرب العالمية الثانية ، كانوا يعتقدون أنه إذا أصيب أحدهم برصاصة ونجا منها لأي سبب فإن معنى ذلك أنه سيعيش إلى الأبد من هنا كان الملك حسين يقول لأصدقائه ضاحكا : " لقد نلت رصاصتي " وبالتالي فإنني سأعيش طويلا ، ولكن يبدو أن السرطان أقوى من الطلقات والقنابل فاستطاع أن ينال أخيرا من الملك العظيم ، كان السرطان أقوى أو قد تكون المسألة كما يقول التراث العربي : " من لم يمت بالسيف مات بغيرة " .

الملك عبد الله والتركة الثقيلة

ناصع كالثلج ، نقى نقاوة الزهر الخالص ، لم تلوثه الأحداث ، بعيد عن الشللية ، أخضر العود ، مبارك أينما حل ، نظيف اليد واللسان ، كله حيوية وشباب ، لم يقترب من المفاسد السياسية على الإطلاق ، ولم يتلوث بأحداث ما يعرف تاريخيا بأحداث ؛ أيلول الأسود ، هذا غيض من فيض الأوصاف التى يتمتع بها ملك الأردن الجديد الملك عبد الله ، ذلك الشاب الذى تولى شئون دولة لها أهميتها الجيواستراتيجية الحيوية فى المنطقة برمتها ولها دورها التاريخى فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى فى ظروف أشبه بالدراما .

وكانت شائعات قد انتشرت والملك الحسين على فراش الموت تفيد بأن ولى العهد الأمير الحسن يعمل على تعزيز موقفه وتمهيد الأرض لتولى مقاليد الحكم وأن زوجته الأميرة ثروت - الباكستانية الأصل بدأت عملية تجديد فى بناء ومفروشات القصر فى إيحاء منها بأن عمر الملك قد أوشك على الانتهاء كذلك أفادت بعض التقارير أن الفريق الكعاينة القائم على الجيش الأردنى قد واجه الأمير الحسن قائلا هذا ليس قصرك .. إنه قصر الملك ثم أسرع بالمغادرة وهو يشعر بان ما يفعله الأمير الحسن يصل إلى مرتبة الخيانة ثم ذهب للأمير عبد الله بن الحسين "الملك الحالى " والذى يحمل رتبة فريق فى

الجيش ويشغل منصب قائد القوات الخاصة فى سلاح المشاة ، وأبلغه بما حدث .

وعندما علم الأمير عبد الله بالواقعة استقل طائرة ملكية صغيرة على الفور وأقلع بها متوجها إلى المستشفى الأمريكى الذى كان والده يعالج فيه وقام بزيارة سرية لوالده لإبلاغه بما حدث . وظل نبأ الزيارة التى قام بها الأمير عبد الله على الكتمان حتى نشرة يوم بعد ذلك ، لكنه كان الدافع وراء إعلان اكتمال علاج الملك حسين لتبرير مغادرته المستشفى والعودة إلى بلاده لمعالجة الموقف الذى نشأ بسبب تصرفات شقيقة .

وأضافت هذه التقارير أيضا أن التغيرات التى حدثت فى الأردن قد ألقت مسئولية كبيرة على عاتق اللواء سميح اليطيمى قائد قوات الأمن الداخلى وهو رجل مقرب من الحسين وكان يدين له بالولاء لأنه يعتبر من كبار مستشارى الأمير عبد الله وحضر اللقاء الذى عقده مع وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت .. عندما غيرت مسار رحلتها لكى تذهب إلى عمان لتهنئته وإبلاغه تأييد ودعم الولايات المتحدة له سياسيا واقتصاديا لضمان الاستقرار فى الأردن.

وكان الأمير الحسن قد تولى ولاية العهد منذ إبريل سنة ١٩٦٥ بعد استحداث تعديل فى الدستور يبيح منذ ذلك التاريخ انتقال السلطة إلى أكبر أبناء الملك أو أحد إخوته إذا رأى هو ذلك وكان الملك

من قبل قد ولى ابنه عبد الله ولاية العهد فى يناير سنه ١٩٦٣ ، لكن نتيجة محاولات الاغتيالات المتكررة التى استهدفت حياته دفعته إلى تكليف شقيقه الحسن بمجرد بلوغه سن الرشد وذلك تحاشيا لوصاية طويلة فيما لو غاب عن الساحة فى ذلك الوقت لأن عمر نجله لم يتجاوز ثلاث سنوات فى ذلك الوقت .

وعن الأمير عبد الله تقول بعض المصادر الأردنية والعربية والأجنبية أنه اكتسب خبرة سياسية واسعة نتيجة المهام التى كلفه بها والده وتوفير كافة الإمكانيات له لتلقى مثل هذه الخبرة سواء فى مجال دراسة العلوم السياسية والشئون الدولية ، كذلك عبر موافقته لوالده فى العديد من الزيارات والمناسبات الوطنية والعربية والدولية بالإضافة إلى كونه ضابطا فى القوات المسلحة فإنه كان يمارس نشاطات واسعة فى الحياة الاجتماعية بالأردن حيث كان دائم الاتصال بمواطنى الأردن فى مختلف مواقعهم يتعرف على أحوالهم ويستمع إلى همومهم وآرائهم مما أكد تعلق الناس به وتجلى ذلك واضحا خلال الاحتفالات التى جرت والتى عبر فيها الأردنيون عن تأييدهم لقرار الملك حسين ومبايعتهم له وليا للعهد ويرأس ولى العهد والملك الحالى الاتحاد الأردنى لكرة القدم واللجنة الوطنية لإنتاج الأفلام السياحية والأثرية والاتحاد العربى للغوص . ويهوى سباق السيارات وهو بطل سباق الرالى الأردنى كما يهوى الرياضة المائية وله اهتمام مميز فى حماية البيئة البحرية والصحراوية وهو من

مواليد يناير سنة ١٩٦٢ ونشأ تحت الإشراف المباشر للملك حسين .وتزوج الأميرة رانيا العبد الله وهى فلسطينية كانت مقيمة بالكويت حتى احتلال العراق ثم عادت إلى الأردن مع عائلتها. تزوجها فى ١٠ يونيو سنه ١٩٩٣ ورزقا بمولودهما الأول الأمير " الحسين " فى ٢٨ يونيو سنه ١٩٩٤ ، كما رزقا بالأميرة " إيمان" فى ٢٧ سبتمبر سنه ١٩٩٦ ويعد زواجه بفلسطينية مسألة محببة لدى الفلسطينيين .

تقول كافة التقارير عن الملك الشاب بأنه يأتى إلى هذا الموقع وهو ناصع كالثلج لأنه لم يقترب من مفاسد الحكم على الإطلاق ولم يحسب على تيار، ولا على شلة من الشلل السياسية فى الأردن وذلك لحرص والده الملك حسين على إبعاده وإبعاد أشقائه عن الأعمال التجارية كما أنه من المعروف عنه انضباطه الصارم واحترامه لمن هو أقل منه رتبة ، ويحظى بتأييد الشارع الأردنى بما فى ذلك العشائر والقبائل الأردنية وذلك باحتكاكه بهم من خلال خدمته الطويلة فى صفوف القوات المسلحة ومعرفتهم واحداً واحداً، وبالاسم. وقد منحته هذه القبائل والعشائر ثقتها لمعرفتها به وببساطته وتواضعه أولا ثم على اعتبار انه يمثل التواصل بينها وبين الملك حسين الذى عاش معها وعاشت معه لفترة نصف قرن تقريبا .

كذلك لم يتلوث الأمير عبد الله بأحداث سبتمبر " أيلول الأسود " الشهيرة عام ١٩٧٠ ، كما أنه يحظى بتأييد ودعم الأردنيين

من أصل فلسطينى لأنه متزوج من سيدة من قرية " ذنابة " فى طولكرم فى الضفة الغربية .

ويقول المراقبون: إن الأمير عبد الله تولى فى وقت يعانى فيه اقتصاد البلاد من مشاكل متنامية كما تنامى فيه الاستياء من معاهدة السلام التى وقعها الأردن مع إسرائيل سنه ١٩٩٤ ، كذلك توتر العلاقات بين الأردن وبعض جيرانه الذين اتهموهم ولى العهد السابق الأمير حسن بمحاولة زعزعة استقراره ، كما لا يحسب للأمير عبد الله بالنسبة لعدد كبير من الأردنيين أنه أبن العاهل الأردنى من زوجته البريطانية .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو؛ هل الملك عبد الله بن الحسن قادر على الاضطلاع بالتركة الثقيلة التى تركها له والده ؟ إن الفترة الماضية القليلة التى قضاها تنبئ بذلك ، وتشير إلى عقلانيته فى معالجة الأمور فهل سيستمر فى مسلكه أم أن الرياح تأتى بما قد لا تشتهى السفن .

الفصل السادس

سورية والجمهورية الملكية

الصراع على السلطة بين الوريث الطبيب بشار وولي العهد رفعت الأسد

ولد حافظ الأسد فى السادس من أكتوبر ١٩٣٠، وكان أبوه فلاحاً يزرع التين والتبغ ، ويعيش فى منزل من حجرتين من الحجر الخشن فى قرداحة فى التلال الواقعة شمال شرقى ميناء اللا ذقية . ولم تكن قرداحة، وهى مجرد قرية علوية فى قلب منطقة العلويين، سوى مجموعة من الأكواخ ذات الأسطح المستوية الواقعة فى أقصى طرف أحد الطرق الضيقة. وقد بدأ حافظ الأسد فى تلقى تعليمه فى مدرسة فى الهواء الطلق أعدتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية . وفى عام ١٩٣٩، هبط الابن النابه المحلى، من الجبل ليلتحق بالمدرسة فى اللاذقية، وهناك واجه بقوة حقيقة معنى أن يكون المرء علوياً فى سوريا.

وفى سن السادسة عشرة، انجذب الأسد الذى كان خجولاً فى فصله إلى حزب البعث الذى كان يشير الأقليات إلى أعلى المناصب السياسية والاجتماعية فى النظام بين سوريا. وسرعان ما انتقل الأسد ذو الموهبة الفطرية من رسم الشعارات البعثية فوق الجدران إلى كتابة المنشورات السياسية البعثية.

وفى بداية الخمسينات انضم حافظ الأسد إلى القوات المسلحة السورية التى كانت قد طورتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية . وكان الجيش غالباً يوفر الوظائف للفقراء، ويمثل الملاذ الوحيد الذى يهرب إليه الفقراء من العمل كإجراء فى الأرض.

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه مع رفض طبقات ملاك الأراضى والتجار مهنة الجندية المتواضعة، امتلأ سلك الضباط والرتب الأخرى بالأقليات والفئات الأخرى فى النظام الاقتصادى. ومن خلال سعيها للتحرك الاجتماعى،انجذبت نفس هذه الشريحة من المجتمع التى انضمت إلى الجيش إلى أيديولوجية البعث. ونتيجة لذلك ، التحمت القوات المسلحة وحزب البعث معاً ، وأمسكت الأولى بالقوة العسكرية فى سوريا ، وسيطر الثانى على نظامها البيروقراطى . وفى عام ١٩٥٨، صعدا معاً إلى قمة النظام السياسى المنحرف فى سوريا .

وقد أصبحت سوريا منذ استقلالها مرادفاً للفوضى السياسية، وعندما تولت حكومة البعث السلطة، تبين لها أنها لا تستطيع أن تفعل شىء للسيطرة على مظاهر التنافس بين طوائف المجتمع المختلفة.

ولذلك تمسك البعث بفكرة الوحدة مع مصر تحت حكم عبد الناصر. وأمضى حافظ الأسد الذى كان واحداً من الضباط الجزء الأكبر من تاريخ الجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة، وفى أكتوبر ١٩٥٩ قام عبد الناصر بتعيين المشير عبد الحكيم عامر كحاكم فعلى لسوريا ، وأصبحت دمشق بتغاضيها عن ذلك عاصمة إقليمية لإمبراطورية مصرية .

وفى أعقاب الاضطراب الذى أصاب مجتمع رجال الأعمال نتيجة قرارات التأميم التى أعلنها عبد الناصر فى يوليو ١٩٦١، انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١، بعصيان يمينى مسلح قاده المقدم عبد الكريم النحلاوى . وطوال الشهور التسعة عشر التالية ، راحت سوريا تدور فى دوامة عنيفة أخرى من الانقلابات والانقلابات المضادة . وبالقرب من الوسط كانت هناك اللجنة العسكرية، وهى تنظيم سرى من شباب الضباط العسكريين البعثيين الغامضين ممن يؤمنون بأفكارهم البعثية الخاصة. وكان من بينهم حافظ الأسد.

وفى ليلة السابع من مارس ١٩٦٣، أصدرت اللجنة العسكرية أوامرها للدبابات وقوات المشاة بالتحرك صوب دمشق. وسقطت العاصمة بسرعة البرق، وتقبل السكان اللامبالون فى أرجاء سوريا الانقلاب غير الدموى تقريباً. وقد تحقق النجاح بسهولة لأن الحكومة القائمة ، حسبما جاء على لسان حافظ الأسد : " كانت حكومة بلا تأييد شعبى وبلا جيش ، حيث كانت عبارة عن حكم طبقة تتمتع بالقوة والسلطان " . وقبل أسبوع واحد من الانقلاب كان حافظ الأسد البالغ من العمر ثلاثين عاماً وشركاؤه الخمسة فيه يعيشون حياة مبهمة تصفها المخاطر ويلفها الغموض، والآن أصبحوا أكبر قوة فى السياسة السورية .

وفى الثانى عشر من نوفمبر ١٩٧٠، قام حافظ الأسد بخطواته الأخيرة التى أهلته لإحكام سيطرته المطلقة على حزب البعث السورى والحكومة السورية وهكذا تولى حافظ الأسد السلطة وكان يبلغ من العمر أربعين عاماً آنذاك.

كان الأسد بارعاً فى القدرة على البقاء. وخلال ٣٠ عاماً على قمة السلطة، حيث انهار حلفاؤه السوفييت واغتيل السادات وتعاقب على الحكم رؤساء وزارات فى إسرائيل، استطاع الأسد دوماً أن يعزز سيطرته فى دمشق بحنكة بينما كان ينتظر أن يستعيد الجولان. وبذاك أصبح هو الصامد الوحيد فى عملية السلام المتعثرة.

وقد بدا أن أوان حافظ الأسد قد جاء أخيراً هذا العام. وحين بدأت دقات الساعة تقترب من الألفية الجديدة، بدا هذا الزعيم العربى النحيل الماكر مستعداً للحصول على جوائز صبره الذى لا ينفد. وفى النهاية انسحب الإسرائيليون من جنوب لبنان وبدا أنهم مستعدون لإعادة الجولان إليه. وقد اقترب الأسد من تعين ابنه بشار الذى تعلم فى الغربة خليفة له.

والآن بعد موت حافظ الأسد الحاكم السورى المطلق عن ٦٩ عاماً ترك مستقبل سوريا فى يد ابنه ووريثه بشار.

وقد حصل فى بداية عام ١٩٩٩ على رتبة عقيد بعد ما أجرى عدد من الدورات المتخصصة.

ولن يخطئ أحد أن بشاراً يمتلك الجاذبية. وهو عازب وواحدا من أربعة أخوة ما زالوا على قيد الحياة . له فى الواقع بعض السمات المهمة. فعندما كان أخوه الأكبر يجعل من نفسه اسماً بارزاً فى الجيش السورى. كان بشار فى لندن يتدرب ليصبح أخصائى عيون ويتذوق طعم الحياة فى ديمقراطية حديثة. (وذكر أنه استخدم اسماً مستعاراً فى لندن، لأسباب يفترض أنها تتعلق بسلامته الشخصية)، وأثناء وجوده هناك ، أسرته قوة التكنولوجيا على ما يبدو. " أنه مولع بالكمبيوتر " ، كما يقول الصحافى البريطانى باتريك سيل كاتب سيرة الأسد الذاتية، " فهو ينتعش بقراءة مجلات الكمبيوتر " . ومنذ عودته إلى سوريا عام ١٩٩٤ ـ ليتم تأهيله للخلافة . اكتسب بشار أيضاً سمعة بأنه مصمم على القضاء على الفساد . وتزعم حملة لمحاربة الكسب غير المشروع، بما فى ذلك اعتقال (٣٢) من كبار المسئولين . (انتحر رئيس الوزراء السابق محمود الزعبى الذى كان محل تركيز تلك الحملة بإطلاق النار على نفسه). وقال سيل: " إنها لحظة واعدة ، فقد أرعبت حملته ضد الفساد الكل. ولكنها كانت ضرورية جداً لتطهير المؤسسات العامة واجتذاب الاستثمار.

وبشار هو الأحدث ضمن جيل جديد من الزعماء العرب الذين يتمتعون بخبرة ضئيلة ولكنها تحمل فى طياتها أيضاً نظرة إلى العالم أكثر حداثة وعصرية. ومن هؤلاء العاهل الأردنى الملك عبد الله والعاهل المغربى الملك محمد السادس ، ولكيلهما علاقات طيبة مع

إسرائيل . فهل سيحذو بشار حذوهما؟ يعتقد البعض أنه لن يتمكن من دفع سوريا إلى عصر المعلومات دون أن يحقق السلام. غير أنه يتعين عليه أيضاً احترام الميراث القوى لأبيه الذى أراد التوصل إلى تسوية سلمية ، ولكن بشروطه فقط.

وعن نشاط بشار السياسى الرسمى خارجياً عبر بوابة بيروت إبريل ١٩٩٥ نتيجة لقناعته بخصوصية العلاقة بين البلدين واهتمامه بها، وتعززت العلاقة عندما انتخب العماد اميل لحود رئيساً فى نهاية ١٩٩٨ ثم تشكيل الدكتور سليم الحص الحكومة بعد خروج الرئيس السابق رفيق الحريرى.

بعد ذلك اتسعت دائرة اهتمامه بتدريس العلاقات السورية - الأردنية. فزار عمان فى فبراير ١٩٩٩ لتعزية العاهل الأردنى الملك عبد الله الثانى بوفاة والده الملك حسين ، وكان اللقاء السياسى - الإقليمى الأول مع " الحليف الاستراتيجى " لسورية حصل فى مايو ١٩٩٩ خلال زيارة الرئيس الإيرانى محمد خاتمى إلى دمشق .

وتبعت ذلك الجولة العربية السياسية الأولى فى عندما توجه إلى الرياض واجتمع إلى كل من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وولى العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز والنائب الثانى لرئيس الوزراء وزير الدفاع والطيران الأمير سلطان بن عبد العزيز، وشملت محادثاته الخليجية لقاءات مع أمير الكويت الشيخ

جابر الأحمد الصباح وأمير البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة والسلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان..

أما رفعت الأسد شقيق الرئيس الراحل حافظ الأسد ونائبه الأسبق فقد أصدر بياناً يدعو فيه كل القوى الشعبية المؤيدة فى سوريا للعمل من أجل إنقاذ الوضع السئ فى البلاد ووصف نفسه بأنه ممثل الشرعية الحقيقية فى سوريا وأكد استعداده لتحمل مسئولياته فى أى وقت وهاجم القيادة الحالية التى وضعها بأنها قيادة طائشة لا تملك الرؤية السليمة ولا تعرف تقدير الأمور حق قدرها.

كان حافظ الأسد قد قضى على نفوذ رفعت الأسد تماماً فى عام ١٩٩٩، بعد إغلاق مينائه الخاص فى اللاذقية، واعتقال معظم أنصاره وبتجريده من لقب نائب الرئيس .

ويعيش رفعت الأسد فى باريس منذ عام ١٩٨٦ ، وعاد إلى دمشق عام ١٩٩٢ عندما توفيت والدته السيدة ناعسة ، وشارك فى مراسم دفن المرحوم باسل نجل الرئيس الأكبر فى عام ١٩٩٤ والآن يحاول رفعت الأسد أن يصل إلى السلطة من جديد ويرى أنه ممثل الشرعية الحقيقية فى سوريا !!

الفصل السابع

ليبيا والمهر الجامح

- ليبيا القصة من الداخل .
- العقيد القذافي والمخابرات الأمريكية .

ليبيا القصة من الداخل

تعتبر ليبيا دولة كبيرة المساحة، حيث تعد رابع أكبر دولة فى أفريقيا قاطبة ولكنها محدودة السكان إذ لا يتعدى عدد سكانها أربعة ملايين نسمة، وبغض النظر عن موقعها الجغرافى الاستراتيجى على شاطئ البحر المتوسط، واشتراكها فى الحدود مع أربع دول عربية ودولتين أفريقيتين فإن مساحة ليبيا الشاسعة تعد محدودة القيمة، حيث معظم هذه الأراضى غير قابلة للزراعة، ويتمركز سكان ليبيا فى ثلاث مناطق هى طرابلس وبنغازى على ساحل البحر المتوسط وواحة فزان فى جنوب غربى البلاد .

ويتمثل أكثر ما تحتويه الأراضى الليبية قيمة فى البترول إذ قدرت احتياطاته مع مطلع التسعينات بحوالى ٢٠بليون برميل ... باستثناء البترول فإن الاقتصاد الليبى يعد متواضعا وعلى درجة عالية من الاعتماد على المصادر الخارجية سواء فيما يتعلق بالمنتجات الغذائية أو الصناعية .

كذلك فإن القدرات العسكرية الليبية تعد متواضعة بسبب قله حجم السكان والافتقار إلى الخبرات الفنية أو العسكرية بصفة عامة .

والحادث تاريخياً أن ليبيا دخلت تجربة الحكم الوطنى شديدة الوهن والضعف .. إذ منذ الوهلة الأولى لحكم الملك إدريس

السنوسى الأول، بدا واضحاً أن الملك سيكون دمية أو إن شئنا فلنقل وكيلا عن القوى الاستعمارية التى ألبسته التاج، وخاصة بريطانيا.

فمنذ الأشهر الأولى لاستقلال ليبيا المنقوص أصيبت البلاد بحالة من عدم الاستقرار السياسى الذى كان نابعا بالأساس، من فشل نمط الديموقراطية الغربية الذى حاول الملك وأشياعه إرسائه متخطياً بذلك طبيعة البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى ترعرع الليبيون فى كنفها من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب التفاوت البين فى توزيع الدخول، حيث استأثر الملك والحفنة المحيطة به بثروات البلاد وخيراتها، بينما بقيت غالبية الشعب تعيش دون حد الكفاف ومن ناحية ثالثة : إن الاستعمار كان لا يزال جاثماً على الأراضى الليبية متمثلا فى الامتيازات العسكرية والمدنية التى كانت تحظى بها كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.. فقدم لبريطانيا - طبقا لمعاهدة الصداقة والتحالف التى وقعها معها النظام فى يوليو عام ١٩٥٣ - ثلاث قواعد فى بنغازى وطرابلس والعضم، بالإضافة إلى قواتها التى كانت تنتشر فى عدة أماكن من البلاد أما الولايات المتحدة فقد كانت تستحوذ - مقابل مبلغ مالى زهيد - على قاعدة هويلس الحيوية بموجب المعاهدة التى أبرمها معها النظام فى سبتمبر ١٩٥٤ .

غير أن أحداثا جساما قد قلبت الأمور رأساً على عقب، حيث ترتب عليها ليس فقط رحيل النظام الملكى بغير رجعة، وإنما أيضا

إجلاء القواعد الأجنبية عن ليبيا، مما شكل بدوره بداية لتدهور العلاقات الليبية مع القوى الاستعمارية التى خرجت من ليبيا تجر أذيال الخيبة وتحديدا مع الولايات المتحدة الأمريكية.

أولا : انتشار المد القومى

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو فى مصر عام ١٩٥٢ وبرزت توجهاتها المعادية للغرب والسيطرة الاستعمارية والصهيونية، ظل النظام الملكى فى ليبيا متوجساً من أن تمتد (عدوى) المد القومى إلى ليبيا، بما يحمله ذلك فى طياته من بذور فناء النظام ذاته، ومن ثم اتصفت العلاقات المصرية الليبية على المستوى الرسمى بالبرود طوال فترة الخمسينات.

بيد أن النظام الملكى لم يستطع أن يتصدى للنفوذ والحضور الناصرى الذى تغلغل فى ليبيا سواء عن طريق المصريين العاملين فى ليبيا أو من خلال الإعلام المصرى، خاصة الإعلام المسموع، وبصفة أكثر خصوصية إذاعة صوت العرب .. إذ عبر هذه الإذاعة، أصبحت الناصرية بما تضمنته من توجهات عدائية للغرب والقوى الاستعمارية، توجهات وحدوية العرب هى الصورة الأعلى فى الشارع الليبى، لدرجة أن صور عبد الناصر أصبحت تنتشر أكثر من صور الملك ذاته، كما لقيت أقاويله أصداء واسعة لم تلقها أقاويل أحد قبله.

وأمام تصاعد نقمة جماهير الوعى القومى التحررى الذى ألفته ثورة يوليو بمصر، وما تبع ذلك من إقامة الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا أسرعت الولايات المتحدة لإنقاذ حليفها إدريس الأول، فوافقت على إعادة النظر فى الاتفاقية من الناحية المالية فقط، وزادت من المبلغ الذى كانت تدفعه لليبيا من مليون دولار مقابل عشرة ملايين دولار سنويا بالإضافة إلى بعض المعونات السنوية من القمح .

وفى عام ١٩٦٤ بلغ الوعى الشعبى قمته فطالب البرلمان الليبى- الذى أصبح يضم بعض العناصر الوطنية - بتصفية القواعد الأجنبية وتحقيق الجلاء عن الأراضى الليبية، خاصة بعد الانتفاضة الشعبية التى زلزلت أرجاء طرابلس وبنغازى فى الفترة من ١٤ إلى ٢٠ يناير عام ١٩٦٤ بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة فى القاهرة وتلك الانتفاضة التى سقط فيها عدد من القتلى وعلى أثرها قدم الفكينى رئيس الوزراء استقالته، بل إن الملك نفسه فكر فى التنازل عن العرش .

وفى عام ١٩٦٥ جلت القوات البريطانية عن طرابلس، لكنها ظلت محتفظة بوجودها وقواعدها فى برقة، كما ظلت قاعدة هويلس الأمريكية على حالها . واستمر الحال على هذا المنوال، من حيث

ممالأة الملك للقوى الاستعمارية من ناحية والسخط الشعبى المطعم بروح القومية العربية من ناحية أخرى . وإلى أن خاضت الولايات المتحدة المعركة ضد الدول العربية بصورة سافرة وساندت إسرائيل مساندة فعالة وحاسمة، وذلك عندما قررت تزويدها بمعدات وأسلحة جديدة قبل نشوب القتال فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧، بل إن الولايات المتحدة ورغبه منها فى إجهاض التجربة الناصرية شاركت فعلياً فى القتال .

وإزاء هذه الحالة ورغم البيان الصورى الذى أصدره النظام الملكى والذى يتعهد فيه بكامل قدراته ضد العدوان الصهيونى، ثارت ثائرة الجماهير الليبية، والتى خرجت محمومة إلى شوارع طرابلس وبنغازى تحرق كل ما يقابلها من ممتلكات اليهود، وما يصادفها من المنشآت البريطانية والأمريكية، وتطالب بتصفية القواعد الأجنبية - الأمريكية والبريطانية - فى التو والحال.

ولكن ضمن سياسة الالتفاف على المطالب الحقيقية للجماهير الليبية انسحبت بريطانيا من قاعدة بنغازى (برقة) فى عام ١٩٦٨ دون التخلى عن قاعدة الخصم الجوية والحامية العسكرية فى طبرق وفى حين ظلت القاعدة الأمريكية فى طرابلس على حالها .

وهكذا نجد أن تصفية القواعد الأجنبية وجلاء القوات عن ليبيا أصبح مطلباً شعبياً بالدرجة الأولى، وحركته بواعث قومية ناصرية ووطنية، وساعد على تفعيله تدفق النفط في ليبيا بصورة غير مسبوقة، وما وفره ذلك من إمكانيات جديدة للتطور الليبي الذاتي دون حاجة هذه المرة إلى مساعدات استعمارية مشروطة، كما سنرى في النقطة التالية .

ثانياً : اكتشاف النفط في ليبيا

لقد كانت دوماً الموارد الاقتصادية - حال توافرها - عاملاً مفعلا للدور الذي يمكن أن تلعبه الدولة الحائزة لها في النسق الدولي، إلا أن هذه الموارد قد تكون مصدر متاعب جمة لتلك الدولة الحائزة لها متى كانت هذه الدولة ترضخ تحت نير الاستعمار أو كانت تفتقد القوة الكافية لحمايتها والدفاع عنها ضد القوى الطامعة في الاستحواذ عليها ... وهذا بالضبط ما حدث لليبيا عند ظهور النفط بكميات تجارية كبيرة بها .

وتشير كل الدلائل إلى أن تجربة ليبيا الاقتصادية كانت تجربة مأساوية فليبيا التي يقول التاريخ عنها : إنها كانت " سلة غذاء " روما قبل خمسة عشرة قرنا أمست قبيل حصولها على الاستقلال فقراً يتضور أهله جوعا ولم تكن مساحة ليبيا الشاسعة شفيعاً لحل تلك الأزمة، ليس بسبب الاستغلال السيئ للأراضي الزراعية من قبل

الإدارة الاستعمارية فحسب، بل أيضا لأن معظم الأراضى الليبية هى أصلاً أراضى صحراوية لم يكن يرجى منها سوى الرعى الموقوت المحدود وهواية صيد الغزلان .

ولا يمكن الحديث عن تعدين أو تصنيع يذكر فى تلك الفترة وقد تواكب مع هذا الترجيع على الصعيد الاقتصادى ترجيعاً أشد منه عتواً على الصعيد الاجتماعى .. إذ لم يكن عدد سكان ليبيا فى تلك الفترة يزيد عن ٢ مليون نسمة، جلهم من الحرافيش الذين أنهكتهم بلوى الأمية، فضلا عن افتقادهم الأدنى للملكات الإنتاجية والإبداعية، بينما كانت البلاد عديمة الجامعات، ولا تخطى سوى بعدد محدود من المدارس الثانوية، والتى أنشئت قبل الاستقلال بقرابة سبع سنوات .

بيد أن حدثا ما قد واكب انتشار المد القومى فى ليبيا، وغير مجرى التاريخ الاقتصادى الليبى بأكمله، يتمثل هذا الحدث فى اكتشاف النفط الجيد بكميات كبيرة فى عام ١٩٥٩، وهو الحدث الذى كان بمثابة نقلة نوعية بعيدة للاقتصاد الليبى من ناحية، ومصدرا لتهافت القوى الاستعمارية، وتحديد ، الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا على الفوز بنصيب الأسد من تلك الثروة الواعدة، مما شكل بدوره تحدياً خطيراً للسلطة الوطنية التى لم تكن قد ذاقت بعد فرحة الاستقلال من ناحية ثانية .

وواقع الأمر .. فإن تهافت القوى الاستعمارية على مجلس النفط الليبى ليس وليد تلك السنة بالذات، بل يعود إلى أقدم من ذلك بكثير.. إلى ظهور الدلالات الأولى على وجود نفط بليبيا سنه ١٩١٤، والتى تأكدت فى الفترة ما بين ١٩٢٨ و ١٩٣٤ .. إذ كادت الشركة الإيطالية العامة للنفط أن تستخرجه منذ ١٩٣٨ ولولا أن الحرب العالمية الثانية قد حال دون ذلك .

وفى عام ١٩٤٧ أكدت تقارير خبراء شركة " ستاندارد جرسى" على وجود كميات كبيرة من النفط إلا أنه قد أخفى ذلك الأمر حتى يتضح المستقبل السياسى لليبيا، وذلك بإيعاز من الدولتين صاحبتى المصلحة ونعنى بهما الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وذلك خشية أن تدور رؤوس رجال الحكومة الليبية بهذا الخبر خاصة إذا أدركوا أبعاد التدفقات المالية التى يوفرها لهم، كما أن اكتشاف النفط فى حد ذاته يشكل إمكانية هائلة ويرفع من القيمة الاستراتيجية لليبيا، وبالتالى فطبقا للرؤية الأمريكية - البريطانية (كان من الضرورى استمرار ليبيا ضمن المعسكر الغربى على الأقل من أجل الحفاظ على وجودهما العسكرى فيها.

أيضا كان من أهم الأسباب التى توختها الدولتان من إخفاء اكتشاف النفط فى ليبيا، ألا يستثير اكتشاف تلك الثروة أطماع مصر - عبد الناصر - وكذلك حتى لا يؤدى وجود النفط بتلك الكميات الهائلة إلى توسيع الطبقة العاملة، ورفع مستوى مهارتها المهنية

والفكرية، وهو الأمر الذى كان الاتحاد السوفيتى يتمناه، وبالتالى سيحاول التأثير على اتجاهات القوى العاملة هناك .

بيد أن حدثا جللاً كهذا كان من الصعوبة بمكان التكتم عليه، وحينما ظهر الأمر على علاقة الأولى، وبدا واضحا أن الليبيين مقدمين على التخليص من ربقة التبعية الاقتصادية بالغرب على أثر اكتشاف النفط خاصة بعد أن أقدم رجال الأعمال الليبيون على إنشاء شركة الزيت الوطنية الليبية The National " NOCOL " oil company of Libya عام ١٩٦٢، وفى ظل توجهات ثورية وتحررية ووطنية آمنت عقيدة وعملاً بحتمية التحرر الوطنى بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية اتسع نطاق الحركة السياسية على مختلف الأصعدة تلك الحركة التى اكتسبت زخمها الحقيقى بقيام ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ وهو ما سوف نناقشه فيما بعد عند التعرض لملابسات هذه الثورة .

العقيد القذافى . . . والمخابرات الأمريكية

هو معمر بن محمد بن عبد السلام بن حمد بن محمد، ولد فى ربيع عام ١٩٤٢، وهو ينتمى لقبيلة عربية بدوية تدعى القذاذفة، عاش طفولة خشنة للغاية .. كان يحرث الأرض ويرعى الماعز والإبل، وكان جادا صارما، لا يميل إلى العبوس. وكان دائما مشغولا بالتفكير فى أمرها .

التحق بإحدى مدارس سرت فى العاشرة من عمرة ثم توجه إلى فزان حيث تردد على المدرسة الإعدادية ثلاث سنوات، ثم ذهب إلى مصراته ليكمل دراسته الثانوية وترك مصراته إلى بنغازى حيث التحق بالكلية الحربية .. ومن هناك كانت بذور ثورته .

وكان القذافى منذ صغره موهوبا مجتهداً مغرما بالأمور السياسية، ومولعا بالرموز النضالية العظيمة أمثال عمر المختار. ألقى الخطب ونظم التظاهرات واتصل بصغار الضباط .

كذلك كان شغوفا بالعروبة ومعتزا بالماضى العربى الحضارى العريق قيام ثورة الفاتح .

لم يعد ثمة شك - منذ انتفاضة عام ١٩٦٤ أن ليبيا على المستوى الرسمى متمثلة فى الملك والحاشية المحيطة به . حيث أصبحت معزولة عزلة شبة تامة عن ليبيا - الشعب التى تسابقت

الخطى للإطاحة بالنظام الملكى بتقاليده البالية وبارتباطاته المشبوهة بالقوى الاستعمارية الغربية .

وتحت تأثير الفكر القومى والناصرى وعلى غرار تنظيم الضباط الأحرار فى مصر أجاد مجموعة من الضباط الليبيين تنظيم أنفسهم فيما سمى بتنظيم الضباط الوحدويين الأحرار" وكان على رأسهم العقيد معمر القذافى وتحرك ذلك التنظيم فى شهر سبتمبر ١٩٦٩ للإطاحة بالنظام الملكى الذى أسرع ممثله حسنى الرضا ولى العهد إلى التنازل عن العرش حيث كان الملك إدريس السنوسى الأول آنذاك فى رحلة استجمام إلى اليونان وتركيا، ويذكر أن اختيار ذلك التاريخ بالذات للقيام بالثورة الليبية، كان بغرض قطع الطريق أمام تنفيذ الخطة التى وضعها عمر الشلحمى (مستشارا الملك إدريس السنوسى) وأخوه عبد العزيز (رئيس الأركان) بالاتفاق مع بريطانيا لإعادة تنظيم القوات المسلحة بهدف الاستيلاء على السلطة الفعلية .

وهكذا نجحت الثورة الليبية دون أن تشم رائحة الدم . وأعلنت قيام الجمهورية العربية الليبية التى تبنت شعار " الحرية والاشتراكية والوحدة " وبدأ مجلس قيادة الثورة المكون من إثنى عشر ضابطا صغيرا فى تسيير دفة البلاد فعين فى بداية الأمر حكومة مدنية ترأسها الدكتور محمد المغربى الخبير فى شئون النفط، ولم يكن بها سوى عسكريين فقط، إلا أن هذه الحكومة لم تدم طويلا،

حيث اعتقل العسكريان (أحدهما يدعى العقيد موسى والآخر يدعى المقدم حواز) عندما حاولا القيام بانقلاب فى العاشر من ديسمبر ١٩٦٩، وبعد ذلك بيومين أعلن عن تركيز السلطات التشريعية والتنفيذية بيد مجلس قيادة الثورة، وعين العقيد القذافى الذى كان يترأس ذلك المجلس رئيساً للوزراء وقائداً عاماً للقوات المسلحة، كما عين عبد السلام جلود نائباً لرئيس الوزراء .. وبدأت قيادة الثورة التى لم تكن قد خاضت من قبل تجارب سابقة فى الحكم فى تسيير البلاد حسبما كانت تملية عليها قناعاتها ضمن المصلحة القومية والوطنية، وضمن الخطوط العريضة العامة المتبلورة فى شعارات " الحرية والاشتراكية والوحدة " مستنيرة فى ذلك بالتجارب الوحدوية، ولا سيما تجربة مصر الناصرية .

ولتأمين الثورة بادر مجلس قيادة الثورة بتأميم المصارف، وأنشأ محكمة ثورية لمحاكمة أركان العهد الملكى البائد، كما أصدر عدة قرارات حازمة ضد كل من يحاول التعرض للثورة .

وفى الوقت نفسه بدأ مجلس قيادة الثورة الدخول فى مفاوضات مع المسئولين الأمريكيين والبريطانيين لإزالة القواعد العسكرية التى كانت نتيجتها أن أجلت بريطانيا قواتها المتمركزة فى بنغازى والعضم وطبرق فى ٢٨ مارس عام ١٩٧٠، وبعدهما بقرابة ثلاثة أشهر وتحديداً فى ١١ يونيو ١٩٧٠ سلم الأمريكيون قاعدة

هويلس بعد انتهاء المدة القانونية المتعاقد عليها لتأجير القاعدة المذكورة .

من ناحية أخرى شرعت قيادة الثورة فى رسم سياسة نفطية جديدة لوضع حد لعبث الشركات الاحتكارية بثروة البلاد النفطية حتى سيطرت على زمام أمورها النفطية بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ويصبح السؤال الآن .. ما الذى حملته هذه الأحداث، والتى انتهت بقيام الثورة الليبية من نذر العداء الليبى - الأمريكى المتبادل؟ أو بمعنى آخر. كيف قادت هذه الأحداث إلى توتر العلاقات الليبية الأمريكية ؟

وواقع الحال، فإن الولايات المتحدة، شأنها شأن بريطانيا، قد أظهرت مرونة واضحة تجاه الثورة الليبية فى البداية، بل ورحبت بالتعاون مع النخبة الجديدة، وإن كانت قد اشترطت لإيصال هذا التعاون ضرورة الاحتفاظ بقواعدها العسكرية فى ليبيا والالتزام بالاتفاقيات والمعاهدات القائمة بين البلدين، وكذا ضرورة عدم التعرض للمصالح الاقتصادية والنفطية الأمريكية فى ليبيا .

وبدورة قام مجلس قيادة الثورة بالمناورة عبر طمأنة واشنطن بخصوص طبيعة العلاقة معها تمهيداً لاستجابة واشنطن لمطالب ليبيا من الأسلحة والمعدات التى تحتاج إليها لرفع قدراتها الدفاعية .. وفى المقابل حاولت واشنطن تالياً اتباع سياسة "المهادنة

الحذرة " مع ليبيا، من ناحية أولى لإسكات أصوات الجماهير الليبية التى كانت تندد بالدعم الأمريكى اللامتناهى لإسرائيل ومن ناحية ثانية لدفع العقيد القذافى إلى معاداة السوفييت " وإلى التركيز على المصالح الليبية الأمريكية المشتركة " .

إلا أن ذلك الحال لم يدم طويلاً، حتى أعلن العقيد القذافى فى خطابه فى المؤتمر الشعبى بمدينة طرابلس فى ١٦ أكتوبر ١٩٦٩ عن ضرورة جلاء القواعد الأمريكية والبريطانية، وعدم السماح للأجانب بالتواجد على أرض ليبيا .

وعلى أثر ذلك أخذت الحماسة الجماهير الليبية، فتظاهرت فى ٢ نوفمبر عام ١٩٦٩، وأحدثت بعض التخريب فى سفارتى الولايات المتحدة وبريطانيا الأمر الذى دفع القائم بأعمال السفارة الأمريكية، وكذا القائم بأعمال السفارة البريطانية إلى طلب اعتذار ليبى رسمى عن حوادث التخريب التى قامت بها الجماهير ضد السفارتين، وكذا التعويض المادى عن التلفيات التى أحدثها المتظاهرون، ومرة أخرى - ورغبة فى تهدئة الأوضاع - ناور مجلس قيادة الثورة بضمان عدم تجديد الاعتداء وقبول مبدأ التعويض عن الخسائر طبقا للجنة التى ستشكل لهذا الغرض .

ولكن ما فتئ العقيد القذافى - خاصة بعد أن التقى بالرئيس عبد الناصر أن أعلن عن حتمية الاستقلال الكامل غير المربوط بمعاهدات تكبل ليبيا سياسياً وعسكرياً واقتصادياً .

ورغم مماطلة وتسويف الجانب الأمريكي فيما يتعلق بمفاوضات الجلاء إلا أنه قد تم الاتفاق في نهاية الأمر على جلاء القوات الأمريكية عن قاعدة الملاحة في موعد أقصاه شهر يونيو ١٩٧٠ .. إلا أن الولايات المتحدة لم تترك الأمور دون متاعب تذكر.. إذ ظلت تحيك المؤامرات للثورة الليبية، إذ بالإضافة للانقلاب الذى أحبطته القيادة الثورية، والذى كان تدبيرا أمريكيا بالأساس، توافرت في الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر مارس عام ١٩٧٠ معلومات لدى مجلس قيادة الثورة عن وجود تنظيم سرى يستعد للقيام بانقلاب ضد الثورة منتهزاً فرصة الاحتفالات بالجلاء لتنفيذ المؤامرة، وكان أبرز ما تتضمنه هذه المعلومات :

(أ) وجود تنظيم لضباط الصف على اتصال بالولايات المتحدة، ويمارس اتصالات ببعض الضباط المسرحين، وضباط صف الوحدات .

(ب) وجود اتصالات مشبوهة بين بعض الضباط العاملين والمشكوك في ولائهم للثورة.

(ج) أبلغ قائد الكلية الحربية السابق " وهو أحد الضباط المسرحين، أن أحد ضباط الصف اتصل به وطلب منه الانضمام للتنظيم للإطاحة بمجلس الثورة.

(د) وصل المخابرات العامة الليبية معلومات مؤكدة عن وجود اتصال مستمر ومشبوه ومركز خلال يومى ٢٨ و ٢٩ مارس ١٩٧٠ بين كل من السفير الأمريكى و سفير تونس بطرابلس، وبعض الضباط المسرحين إلا أن هذا الانقلاب قد أحبط أيضا، واستمرت مسيرة المفاوضات حتى تم إجلاء آخر جندى أجنبى عن الأراضى الليبية فى ١١ يونيو سنه ١٩٧٠

وهكذا كان إجلاء القواعد الأجنبية عن ليبيا بمثابة الحلقة الأولى فى مسلسل تدهور العلاقات الليبية الأمريكية بعد قيام الثورة الليبية .

أما الحلقة الثانية فقد كانت هى شروع قيادة الثورة الليبية فى تخليص النفط الليبى من سيطرة الشركات الاحتكارية ... إذ أعادت النظر فى التشريعات النفطية السابقة، وصدر القانون رقم ٢٤ فى مارس ١٩٧٠ بالاستعاضة عن المؤسسة الليبية العامة للنفط " Lipetco " بالمؤسسة الوطنية للنفط " N . O . C " للاهتمام بالثروة النفطية، بدأت تلك المؤسسة بإعادة النظر فى السياسة النفطية السابقة، فوضعت سياسة لتحديد الإنتاج للمحافظة على الثروة الوطنية، حيث وصل الإنتاج فى نهاية عام ١٩٧١ إلى ١٥٠ مليون طن لتحتل بذلك المرتبة الخامسة فى العالم من حيث الإنتاج والمرتبة الثالثة من حيث التصدير.

كما آلت إلى الدولة بموجب هذا القانون شركات ومنشآت التوزيع الآتية :

(١) شركة السيل (شركة مساهمة ليبية) .

(٢) شركة إسو ستاندرد ليبيا المساهمة - قسم التسويق .

(٣) شركة شل ليبيا ليمتد .

(٤) شركة بترو ليبيا المساهمة .

وقد جاءت هذه الأمور فى سباق سعى حكومة الثورة الليبية إلى تأميم تسهيلات التسويق " التوزيع التابعة لشركة إسو الأمريكية، وشركة شل البريطانية الهولندية " .

وفى ديسمبر ١٩٧١ استولت الحكومة الليبية على شركة بريتش بتروليام التى كانت تمتلك فيها الحكومة البريطانية النسبة الأكبر.

وضمن السياسة النفطية الجديدة فقد انخفض الإنتاج عام ١٩٧١ بنسبة ١٠٪ ثم استمر الانخفاض إلى أن وصل إلى ٩٣,٢ مليون طن سنة ١٩٧٧، وفى الوقت نفسه عملت المؤسسة الوطنية على رفع الأسعار بصورة مطردة مستثمرة فى ذلك الظروف المحلية القومية والعالمية فطالبت الشركات العاملة فى مجال النفط برفع أسعار النفط بأثر رجعى حتى عام ١٩٦٥ (٢.٥٠ دولار للبرميل) وأجبرتها

على رفع ضريبة الدخل المستقطعة من الأرباح من ٥٠٪ إلى ٥٤٪ ثم إلى ٥٨٪.

وبعد اتفاقية طهران التى رفعت فيها أسعار نفط الخليج العربى رفعت أسعار النفط الليبى إلى ٣,٤٤ دولار للبرميل، وعندما أنخفض سعر الدولار فى ١٩٧٣ رفعت الدول المنتجة للنفط أسعار نفوطها وأصبح النفط الليبى يساوى ٤٫٤١٦ دولار للبرميل، وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ضاعفت ليبيا سعر نفطها فأصبح ٨,٩٢ دولار للبرميل.

وحينما قررت اللجنة الوزارية المنظمة الأويك رفع الأسعار فى ديسمبر ١٩٧٣ أصبح سعر النفط الليبى ١٥,٨٦ دولار للبرميل، وبذلك ارتفع دخل ليبيا السنوى من النفط من مليار و ٢٥٠ مليون دولار سنة ١٩٧٠ إلى مليارين و ٢٢٣ مليون دولار سنة ١٩٧٣ وزاد احتياطيها من العملة الصعبة على مليارى دولارا الأمر الذى جعلها فى مأمن أثناء صراعها مع الشركات.

وفى هذا السياق اتبعت ليبيا سياسة تميل إلى الحل الوسط حيناً والموقف المتصلب حيناً آخر ففى الوقت الذى اتفقت مع الشركة الإيطالية بشأنها على المشاركة بالتساوى.

قامت الحكومة الليبية بالضغط على شركة " أوكسيدنتال أوف كاليفورنيا أوكس " حتى تقوم بتخفيض إنتاجها بغرض

المحافظة على الثروة الوطنية، وحتى لا تؤثر زيادة الإنتاج على أسعار النفط الليبى، وفى البداية أظهرت الشركة عدم موافقتها على ذلك، إلا أنها رضخت للقبول بحل وسط بعد أن أعلن الرائد عبد السلام جلود أن الجيش الليبى سيحتل مواقع آبار الشركة وسينخفض الإنتاج ولو بالقوة، وفى نفس العام وقع المسئولون فى شركة أوانرليس اتفاقاً مماثلاً مع الحكومة الليبية .

كذلك أقدمت الحكومة الليبية على تأميم حصة الشركة البريطانية (BP) فى ديسمبر ١٩٧١ كرد فعل ضد احتلال الشاة الإيرانى للجزر العربية الثلاث (أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى) التى يعتبر احتلالها أحدهم أسباب الحرب العراقية الإيرانية سنة ١٩٨٠ وأنشأت ليبيا محل الشركة البريطانية المذكورة شركة الخليج العربى ثم يلى ذلك قيام ليبيا بتأميم شركة bunker) (Hunter الأمريكية وحليفة (Bp) البريطانية فى استغلال حقل السرير، وقد وصفت ذلك الإجراء بأنه لطمة قوية للولايات المتحدة بسبب دعمها لإسرائيل .

واستمرت ليبيا فى تلك السياسة، وحتى لم يأت عام ١٩٨٠، إلا وكانت قد استردت ما يزيد على ٦٠٪ من إنتاجها النفطى .

والسؤال الآن .. هل وقفت الولايات المتحدة مكتوفة الأيدى أمام تلك الإجراءات الليبية النفطية، التى أقل ما توصف به أنها كانت إجراءات صارمة ؟

والإجابة بالنفى القاطع، إذ الإفصاح عن طبيعة النوايا الجديدة للثورة الليبية فيما يتعلق بالنواحى النفطية قد أبان للولايات المتحدة ما يمكن أن يمثله من تهديد للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط وبالتالى ضرورة اتخاذ رد فعل حاسم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك المصالح، وبالفعل تم الكشف عن خطة أمريكية لغزو ليبيا والاستيلاء على آبار النفط، وذلك خلال الحظر المفروض على تصدير النفط سنة ١٩٧٣، ومن ثم يمكن القول أن المجابهة النفطية بين حكومة الثورة الليبية والشركات النفطية وخاصة الأمريكية منها كانت - كما ذهبنا - هى الحلقة الثانية فى مسلسل التوتر الذى لحق بالعلاقات الليبية - الأمريكية بعد قيام الثورة الليبية.

وأخيراً فإن الحلقة الثالثة فى مسلسل بدايات التدهور فى العلاقات الليبية الأمريكية تتمثل فى التوجه الذى تبناه العقيد القذافى بوصفة قائدة الثورة الليبية بإزاء قضايا الوحدة والقومية العربية، إذ تبنى العقيد القذافى فى هذا الشأن تقريباً كل ما جاء به الخطاب القومى الناصرى، وما يحمله هذا الخطاب من عداوة لا محدودة للاستعمار الطامع فى السيطرة على مقدرات الأمية العربية والساعى لإدامة تمزقها وإرغامها على التخلف الاجتماعى والاقتصادى.

ومن ثم عولت قيادة الثورة الليبية على أزلية وحتمية الوحدة العربية، بل وربطت ربطاً جدلياً بين الوحدة العربية ومناصرة شعب

فلسطين حتى يتم تحرير التراب الفلسطيني الذى اغتصبته إسرائيل بمساعدة القوى الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

وانطلاقاً من رؤية قيادة الثورة الليبية للصراع العربى - الصهيونى بأنه صراع وجود لا صراع حدود فقد ارتأت أن حرب التحرير هى حرب مستمرة وأنه يمكنها أن تتعامل حتى مع الشيطان لتحرير التراب الوطنى الفلسطينى ووضع حد للغطرسة الصهيونية والأمريكية .

إذا كانت هذه التوجهات قد أثارت إسرائيل قيراطا فإنها قد أثارت الولايات المتحدة أربعة وعشرون قيراطاً مما يلقى بظلاله على المزيد من تدهور العلاقات الليبية - الأمريكية من منظورفهم طبيعة التحالف الاستراتيجى الأمريكى - الإسرائيلى .

والآن .. هل صحيح ما يزعمه البعض عن اندفاع العقيد القذافى فى سلوكياته ؟

تطرح النظرية الثالثة للعقيد القذافى كما وردت بالكتاب الأخضر نموذجا بديلاً للتنمية السياسية والاقتصادية والثقافية لكلا النموذجين اللذين تتبناهما كل من الكتلتين الشرقية والغربية .

تطرح النظرية العالمية الثالثة نفسها كبديل للأيديولوجيتين الشيوعية والرأسمالية وهى وإن كانت قابلة للتطبيق بصفة أساسية

فى البلدان الإسلامية إلا أنها تطرح فى ذات الوقت مجموعة من المبادئ المفيدة بالنسبة لبلدان العالم الثالث غير الإسلامية . تتبنى ليبيا عدم الانحياز بصفة عامة والحياد الإيجابى بصفة كبديلين للانحياز إلى الشرق أو إلى الغرب . وبينما يقوم عدم الانحياز أساسا على تجنب الارتباط بأى من الكتلتين، يتضمن الحياد الإيجابى قدراً من المغامرة فى تتبع أهداف السياسة الخارجية بما فى ذلك العلاقات الثنائية دون مستوى الانحياز مع الشرق أو الغرب .

غير أنه من الواضح أن القذافى لا يلتزم بسياسة عدم الانحياز وفقا للتعريف السابق التى تقوم على أساس " تجنب الارتباط بأى من الكتلتين " . ومع ذلك يتمثل أحد أهداف القذافى فى تحقيق الاكتفاء الذاتى الليبى - بصفة خاصة فى مجال الزراعة - والذى يأتى على قمة أولوياته " لا استقلال لمن يحصلون على قوتهم من وراء البحار" . ومن ثم فإن للعقيد القذافى منهجه الخاص فى إدارة علاقات دولية فى المحيط الدولى .

إذ رغم الخطر الذى فرضته الولايات المتحدة وحلفائها على ليبيا على خلفية أزمة لوكيربى لا يزال الاعتماد الليبى فى الاستثمارات على البلدان الغربية - فضلا عن اعتمادها الحيوى على العمالة الماهرة من الدول الحليفة للغرب مثل مصر وتونس - يشكل عنصراً هاماً فى العلاقات الليبية - الغربية، فعلى الرغم من الإمدادات السوفيتية من الأسلحة ما تزال ليبيا تميل فى علاقاتها

الاقتصادية نحو الغرب . وتعتمد على التكنولوجيا المستوردة من هذه البلاد . كما أن الطلاب الليبيين الذين يدرسون بالخارج يتجهون إلى الجامعات الأمريكية وليس إلى الجامعات السوفيتية . وهناك عنصر هام آخر فى علاقات ليبيا مع الغرب ويتمثل فى معارضة القذافى " للإمبريالية " الغربية، وهو العنصر الذى يفسر تحالفه مع الاتحاد السوفيتى (السابق) .

وعلى الرغم من المزاعم الكثيرة حول ارتباط القذافى بالإرهاب الدولى وحركات التحرر الوطنى بمختلف أشكالها أى أن المنظمات الإرهابية غالباً ما تميل إلى إخفاء مصادر تمويلها ودعمها . ومن ثم يضحى من الصعوبة بمكان إثبات المساندة الليبية لمثل هذه المنظمات .

ويعتبر نهج القذافى من الناحية الرسمية صدى للمفاهيم الناصرية الخاصة بدوائر الاهتمام الثلاث : الدائرة العربية والدائرة الأفريقية والدائرة الإسلامية غير أن هذه الدوائر تتداخل من الناحية الواقعية فضلا عن أن القذافى يقسم اهتماماته بين بلدان المشرق العربى الإسلامية وبلدان المغرب العربى الإسلامية ثم بقية بلدان القارة الأفريقية . وعلى الرغم من أن القذافى يعتمد على الغرب فى الحصول على السلع الغذائية والصناعية وكذا الخدمات كما يعتمد على الاتحاد السوفيتى (السابق) فيما يتعلق بالحصول على

الأسلحة والتدريب العسكرى إلا أن اهتماماته الرئيسية هى بالأساس اهتمامات عربية إقليمية .

وعلى هذا الأساس . فإن وصف الرجل بما ليس فيه إنما هو أشبه بالإسقاط المنوط، والذى يحمل وجهات نظر المعارضة الهشة للعقيد أكثر منه انتقادات موضوعية .

وإذا كان هناك من وصف العقيد القذافى فمن الأحرى أن يكون وصف هيكل له " بالمهر الجامح " الذى تتدافعه الأهداف القومية العريضة، مع افتقاده لآليات تحقيق هذه الأهداف .

الفصل الثامن
العــراق

- صدام وتقسيم العراق
- قصي الرئيس العراقي المنتظر
- عدي ديكتاتور في الأسرة بعيد عن كرسي لرئاسة.

صدام وتقسيم العراق

العراق دولة غريبة الجغرافيا ، إذ لا تتعدد الدول المجاورة لها فحسب ، وإنما أيضاً تباينها من حيث المعطيات الجغرافية والديموجرافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية .. ويحيط بالعراق ست دول هي : تركيا من الشمال وإيران من الشرق والكويت من الجنوب والمملكة العربية السعودية والأردن من الجنوب الغربي وسوريا من الشمال الغربي .. والعراق بموقعها الجغرافي هذا كانت ولا تزال عرضة للاختراق الخارجي ، إذ الجزر الجنوبي من حدود العراق مع إيران فيما دون البصرة بحذاة شط العرب كان ولا يزال محل النزاع بين البلدين لفترة طويلة .. كذلك تعاني دولة العراق من التهديد بصفة مستمرة بقطع روافدها المائية أو التقطير في حصتها ، وذلك لكون نهر دجلة يفوق إليها من تركيا ، كما أن نهر الفرات والذي يتدفق أيضاً من تركيا يعبر الأراضي السورية أولاً ثم يتخلل الأراضي العراقية فيهما ، والمعروف أن علاقة العراق بتركيا على وجه الخصوص ليست دائماً علاقات صداقة .

ولا يتعدى عدد سكان العراق بوجه عام الـ ١٧ مليون نسمة ، جللت الحروب التي خاضتها العراق أغلبهم من صغار السن ، ويعاني المجتمع العراقي من تعدد ديني وعرقي إقليمي .. وإذ يضم إلى جانب كل من العرب والأكراد اللذين يشكلان معاً ٩٥٪ من سكان العراق

عدة جماعات عرقية أخرى مثل التركمان والفرس . كما يئن العراق من انقسام هيكله السكانى بين سنة وشيعة من الناحية الدينية ، بما لذلك من آثار اجتماعية واقتصادية خطيرة .

كذلك تشكل المشكلة الكروية بما لها من أبعاد داخلية وخارجية شوكة تفت فى عضد النظام العراقى .

يعد البترول هو مصدر الثروة الرئيسى فى العراق . إذ شكلت عوائد القطاع البترولى مع نهاية السبعينيات . والملوك بالكامل للدولة . نحو ٦٠٪ من إجمالى الدخل القومى للبلاد ونحو ٨٠٪ من مصادر البلاد من العملات الصعبة .

وفيما يتعلق بقدرات العراق العسكرية تشير إحصائيات عام ١٩٨٧ إلى أن العراق كانت تمثل ليس فقط أكبر قوة عسكرية على مستوى الوطن العربى فحسب، بل على مستوى منطقة الشرق الأوسط بأسرها.

ورغم ذلك فقد مثلت الحروب التى خاضتها العراق لا سيما مع إيران ومع قوات التحالف الدولى بعد غزو الكويت إرهاقاً لقوتها العسكرية .

كذلك كان ضرب إسرائيل للمفاعل النووى العراقى والصراع الدامى الذى خاضته الدولة مع الأكراد طيلة عقدين من الزمان إرهاقاً إضافياً لقوتها العسكرية .

ورغم التقسيم النظرى للبناء السياسى فى العراق فإنه لا يمكن الحديث سوى عن رجل واحد هو صدام حسن ، فالنظام السياسى هو صدام حسين ، وصدام حسين هو النظام .. إن حاضر الحال يقول ذلك. ولكن العديدين يتنبأون بأن هذا الواقع حتماً سيتغير فهل هذا صحيح ؟ هذا ما سنتعرف عليه فى الصفحات التالية .

كانت بغداد نائمة فى الساعات لأولى من صباح يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٨ . وبهدوء تحرك الجنود الموالون للفريق أول عبد الكريم قاسم إلى التقاطعات الرئيسية ومحطة السكك الحديدية ومكاتب البرق ومحطة الإذاعة ، وفى القصر كان الملك فيصل الثانى البالغ من العمر ٢٣ عاماً ، يرتدى ملابسه الداخلية فقط ويقف أمام المرآة ليحلق ذقنه . ودون إنذار أعلنت طلقات المدافع عن حصار الجيش للقصر. وبدون أى أمل فى المقاومة استسلم الملك على وعد بتأمين خروجه هو وأسرته من البلاد . وبينما كان فى وسط ساحة القصر التفت الضابط المسئول وأطلق النار من مدفع رشاش فقتل الملك وعبد الله وصيه .

ولقد كان عبد الكريم قاسم عراقياً صرفاً ، فأبوه عربى سنى ، وأمه كردية ، وجده شيعى ، وكان قاسم يمثل ذلك العنصر داخل العراق الذى يضع العراق والخليج . لا القومية العربية أو أهداف عبد الناصر. على قمة أولوياته . ولكن قاسم لم يستطع أن يكبح القوى

المتعددة في العراق ، كي يبني قومية عراقية خاصة . وفي غضون شهرين من انهيار الملكية بدأت إراقة الدماء بين الناصرين والقوميين والعراقيين ، والبعثيين والشيوعيين ، والأكراد والحكومة ، ففي سبتمبر ١٩٥٨، قام الشيوعيون بحركة تمرد ، قتلوا فيها مئات ممن يشتبه في أنهم من القوميين العرب المناهضين للتوجهات " الدولية" للشيوعيين، وبعد ثلاثة شهور أقام الشيوعيون الأكراد مذبحة للتركمان في كركوك.

وفي أكتوبر ١٩٥٩ حاولت إحدى فرق القتل التابعة لحزب البعث والتي كانت تضم صدام حسين البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، اغتيال قاسم في شوارع بغداد. وفي ربيع عام ١٩٦٢، قام الأكراد المطالبون بالاستقلال أو بالحكم الذاتي على الأقل في إطار عراقي فيدرالي أو " لا مركزية " بثورة واسعة النطاق ومن هذا الاضطراب العظيم برز نموذج وضع كافة أشكال القومية العربية في مواجهة مجتمع متشرذم متعدد الأعراق، غير مؤهل لقبول فكرة القومية العربية ، وترك ذلك الفريق أول عبد الكريم قاسم على رأس ثلاث قوى تتصارع من أجل السيطرة على مصير العراق بين الشيوعيين من ناحية ثالثة ، بينما كان الأكراد يحاربون معركتهم الخاصة من أجل كردستان . وفي النهاية انتصر القوميون العرب .

ففي ٨ فبراير عام ١٩٦٣ ، قامت فرقة تضم أعضاء من حزب البعث باقتياد قاسم وأقرب مساعديه إلى غرفة الموسيقى العربية في

محطة التليفزيون الحكومى وقامت بإطلاق النار عليهم ثم أداروا الكاميرات . وكانت هناك إحدى الجثث ملقاة على كرسى دوار، وسقط قاسم على الأرض . وفيما بدا أنه محاولة لإثبات أن الرجل الذى حكم العراق لمدة خمس سنوات قد مات بالفعل .

وطبقاً للمبدأ البعثى ، فإن القيادة يجب أن تظل فى أيدى أقلية مستنيرة، تمثل الشعب قبل أن يفوضها الشعب صراحة بتولى أمر تمثيلها ، وكان صدام حسين التكريتى واحداً من هذه الأقلية المستنيرة .

وينحدر صدام حسين من الطبقة الدنيا من السنة ، وقد ولد فى ٢٨ إبريل عام ١٩٣٧ لأسرة فقيرة من أسر الفلاحين فى قرية العوجة بالقرب من مدينة تكريت الواقعة على نهر دجلة فى المثلث الذهبى ، وكان البيت الذى ترعرع فيه مبنى من الطوب اللبن والبوص ، ويتم تدفئته فى الشتاء بروث البقر الجاف ، وقد مات والد صدام إما قبل ولادته بوقت قصير، وبعد وفاة والده تزوجت أمه من رجل أمى قال صدام إنه كان فظ التعامل معه.

وفى سن العاشرة هرب صدام إلى بغداد إلى منزل خاله خير الله طلفة . وقد فتحت بغداد أبواب عالم جديد لصدام الشاب ، فدخل المدرسة للمرة الأولى وأنهى الدراسة الثانوية فى سن السادسة عشر، ولأنه كان طموحاً فقد سعى للالتحاق بالسلك العسكرى . ولكن

ضعف درجاته حال دون تقدمه إلى الكلية الحربية فى بغداد ، وهكذا حرم من المؤهلات العسكرية التى يتحلى بها معظم القادة العرب المعاصرين . وإزاء فشله فى الالتحاق بالسلك العسكرى ، تحول إلى السياسة . وقد أمضى صدام - وهو اسم عربى يعنى " الشخص الذى يواجه " - فترة مراهقته منغمساً فى الكلمات الخطابية والعاطفية عن القومية العربية التى تتردد فى جنبات بيت طلفة . وفى عام ١٩٥٧ عندما كان فى العشرين من عمره ، انضم إلى حزب البعث. وفى أكتوبر من عام ١٩٥٩ ، أصبح عضواً فى فرقة الاغتيالات التابعة لحزب البعث والتى أطلقت النار على سيارة الفريق أول عبد الكريم قاسم فى أحد شوارع بغداد فى وضح النهار. وطبقاً للرواية الرسمية عن سيرة حياته الشخصية التى تظهر على شاشة التليفزيون العراقى باستمرار، فإن صدام المجروح أنقذ رفاقه بشجاعة بالاستيلاء على سيارة تحت تهديد السلاح . وبقيادتهم من منزل إلى منزل ، نجح فى الهرب من الشرطة . ثم واصل رحلته وحده حتى عبر الصحراء إلى سوريا وقام بإخراج رصاصة من ساقه بسكين أثناء سيره فى الطريق.

وقد أنهى هروبه فى القاهرة حيث استفاد من المميزات التى كان يمنحها عبد الناصر للقوميين العرب الشبان والتحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة . وكان صدام حسين يمضى معظم وقته ، مثل غيره من السياسيين المنفيين فى تلك الفترة فى أحد مقاهى القاهرة. وبعد ذلك بثلاثين عاماً ذكر صاحب مقهى أنديانا " أنه كان من

أولئك الذين نطلق عليهم مثيرى المتاعب. وكان يتشاجر لأتفه الأسباب . وكنا نريد منعه من ارتياد المقهى . ولكن الشرطة ذكرت أنه فى حماية عبد الناصر. وفى عام ١٩٦٣ ترك صدام الدراسة للعودة إلى العراق ؛ كى يجد له مكاناً فى حكومة البعث التى أطاحت بعبد الكريم قاسم . ولكن انقلاباً عسكرياً أطاح بحزب البعث بعد عام واحد من استيلائه على السلطة.

وفى ٣٠ يوليو١٩٦٨ استولى حزب البعث على السلطة للمرة الثانية وكان عدد أعضاء الحزب لا يتجاوز وقتها الخمسة آلاف شخص ، ولكن عدد أعضائه لم يكن يعكس قوته، فقد كان البعث تنظيماً يقوده جهاز أمنى من الأيديولوجيين المخلصين بزعامة صدام حسين ، وانطلاقاً من القاعدة القوية التى كان الحزب يمتلكها داخل الجيش ، أقام البعث مجلس قيادة الثورة برئاسة أمين عام الحزب أحمد حسن البكر. وكان البكر يشغل أيضاً منصب رئيس الجمهورية وقائد القوات المسلحة. وعين صدام حسين ، مساعد أمين عام الحزب، نائباً لرئيس قيادة الثورة والمسئول عن الأمن الداخلى.

وكان صدام حسين الذى تولى أمر شبكة الأمن القوية والرهيبة لحزب البعث هو الذى دعم ثورة حزب البعث عام ١٩٦٨ . وفى الخامس من يناير عام ١٩٦٩ أعدم النظام سبعة عشر شخصاً بتهمة التجسس ؛ ثلاثة عشر منهم من اليهود وتمت عملية الإعدام بميدان التحرير فى بغداد ، وفى فبراير ١٩٦٩ أودع السجن كافة

أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى ، الخصم الرهيب القديم للبعث ، وفى أكتوبر التالى ، قامت أجهزة الأمن التابعة لصدام حسين بتعذيب وسجن رئيس الوزراء السابق عبد الرحمن البزاز. وبعدها بعام واحد تم إعدام أربعة وأربعين آخرين بتهمة الضلوع فى مؤامرة وهمية ، وبعدها دانت الأمور للبكر وصدام .

واستمرت عمليات الاغتيال والإعدام تتوالى مثل دقات الطبول ، ففى أكتوبر عام ١٩٧٠ أطلقت النار على حردان التكريتى نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع السابق فأردى قتيلاً، وفى أغسطس عام ١٩٧١ طعن عبد الرحيم نصرت ، وهو بعثى سابق وواحد من الميليشيات التى أطاحت بنظام عبد الكريم قاسم طعنات قاتلة فى فراشه ، وفى نوفمبر عام ١٩٧١ قتل فؤاد الكيكاحى زعيم البعث حتى عام ١٩٥٩ فى السجن ، وفى يوليو عام ١٩٧٣ تم إعدام نديم الكزار رئيس الأمن الداخلى ومعه خمسة وثلاثون شخصاً آخرين بتهمة القيام بمحاولة انقلاب . واستمراراً لسياسة القسوة ضد أعدائه ، قضى النظام على الشيوعيين والبعثيين الموالين لسوريا والشيعة العراقيين الرافضين لهيمنة السنة ، وقبل كل هؤلاء الأكراد وقد ألزم البعث نفسه ببناء دولة طبقاً لتصوراته الخاصة ، وكانت مخابرات صدام حسين بمثابة العصا ، بينما كانت عائدات النفط وما شهده المجتمع العراقى خلال الفترة من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٧٨ بمثابة الجزرة.

وفـي وقـت انعقـاد مؤتمـر كـامب ديفيـد ، كـان السـوريون والسعوديون والليبيون ومنظمة التحريـر الفلسطينية وكافـة العـرب الآخرين يعترفون بزعامة العراق فى رفض اتفاق مصر مع إسرائيل . وتصـور البعـث العراقـى بتأثير صـدام حسين ، توحيـد العـالم العربـى تحت قيادة العراق وجعل بغداد مركز هذه الوحدة وفي مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى تونس عام ١٩٧٩، احتفل صدام حسين الذى أصبح القوة الحقيقية فى النظام العراقى ، بما اعتبره خلافة العراق لمصر كأكبر قوة فـى العـالم العربـى ، وفـى عـام ١٩٧٩ تنحـى الرئيـس أحمد حسن البكر، ابن عم صدام حسين ومعلمه وشريكه فى السلطة على مدى عقد من الزمـان ، لأسباب صحية ، وتـولى صدام حسين ، الصبى الفقير القادم مـن تكريـت ، منصـب الرئاسـة ، بالإضافـة إلى منصـب رئيـس الـوزراء ورئيـس مجلـس قيـادة الثـورة وزعيـم حـزب البعـث، وشـكل أقاربـه ورفاقـه القدامـى مجلـس الـوزراء ، واحتلـوا المناصب الرئيسية فى الجيش وقوات الأمن الداخلى . واستقر النظام الجديد فى مكانه الملائم . فقد سقطت العراق ، التى عانت على مدى العشرين عاماً السابقة من آثار عشرة انقلابات ومحاولات انقلابية ، وعصـاة مسـلحين وحـرب أهليـة شـاملة فـى قبضـة صـدام حسـين الحديديـة . ومن خلال فرض إرادته على بلده الممزق ، جعل صدام نفسـه الدولـة عـبر وسـائل عـدة أبرزهـا الأداة الإعلاميـة والأداة الاستخبارية .. وفوق كل ذلك الخوف.

وعلى خلفيه ما يسمى بالثورة الإسلامية فى إيران وبعد حرب علنية ومستترة وتراشقات كلامية وإعلامية بين آية الله الخومينى وصدام حسين قام صدام حسين أمام كاميرات التليفزيون العراقى بتمزيق اتفاقية الجزائر الموقعة ١٩٧٥ ، والتى سلمت العراق بموجبها بسيادة إيران على شط العرب، وبعد أسبوع غزا العراق إيران .

وقد عمل صدام حسين منذ بداية الحرب العراقية الإيرانية على أن يضع فى الأذهان أن تلك حرب عربية ضد القوة الفارسية التى تريد السيطرة على العالم العربى السنى ، ولم يؤثر هذا المنطق على العرب كثيراً . وكان دعمهم للحرب ضد إيران وليس دعماً للعراق. وقد عبر الرئيس العراقى والمحيطون به عن استيائهم الشديد لما اعتبروه ضعفاً فى المساندة العربية لحرب تستنزف العراق . وراح المسئولون العراقيون يصبون جام غضبهم على دول الخليج لعدم تقديرها للتضحيات العراقية . وكما قال أحد المسئولين العراقيين بتذمر: " لقد بذلنا الدماء ، بينما بذل السعوديون الأموال " .

وفى النهاية بدأت الحرب المروعة تضع أوزارها فى إبريل عام ١٩٨٨ . فثمانى سنوات من الهجمات الجوية والصاروخية والاستنزاف الاقتصادى والرعب من التهديدات العراقية باستخدام الغازات السامة ، قضت على إرادة إيران لمواصلة القتال ، وأجبرت الخومينى على التخلى عن مطلبه بإسقاط صدام حسين . وفى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ ، وافق الجانبان على وقف إطلاق النار الذى تم

بواسطة الأمم المتحدة ، وفى بغداد ، المدينة التى ماتت فيها الأفراح العفوية ، امتلأت الشوارع بالحشود التى راحت تغنى وترقص . واستمرت الأفراح خمسة عشر يوماً.

ورسم صدام حسين ، الرجل الذى بدأ الحرب والذى رفض أن يترك الحكم ، صورة النصر من حرب وصلت إلى طريق مسدود وانتهت بوقف إطلاق النار ، فقد أنزل الخزى بطهران وبأولئك الذين كانت ثورتهم الدينية تهدد كثيراً من العرب . وفجأة بدأ نجم صدام حسين الرجل الذى تصدى للفرس ، فى الصعود. وخلع صدام الرداء العسكرى وارتدى لباساً عربياً . ونصب من نفسه مثالاً للنقاء العربى . وأعاد إلى الأذهان أيام عبد الناصر ونصب من نفسه بطلاً للجماهير العربية ضد الأثرياء والصفوة الأرستقراطية، وفى ظل جيش كبير خبر المعارك وبدا قادراً على تحدى إسرائيل قدم صدام نفسه لزعامة العالم العربى .

وفى الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، عبر مائة ألف جندى عراقى الحدود إلى داخل الكويت . وقد جاءوا فى دبابات وناقلات جنود وحافلات عربية. وجاءوا من الحرس الجمهورى صفوة القوات العسكرية العراقية ، ومن الجيش الشعبى ، المكون من الفلاحين غير المنظمين ، ومن جهاز المخابرات المخيف ، ومن الشرطة السرية . وفى غضون خمس ساعات كانوا قد احتلوا الكويت . ومن خلال ما أسماه " ثورة الثانى من أغسطس " أراد

صدام أن يصحح الأخطاء الإمبريالية القديمة ضد العراق، وأن يلغى الحدود التى تحول دون وجود منفذ للعراق على البحر، ورأى أن يعوض العراقيين من مظالم عرب الخليج الذين كانوا يعيشون فى النعيم أثناء الحرب بين العراق وإيران بينما كان العراقيون ينزفون الدماء ويموتون من أجل حمايتهم.

وفى الساعة ٢,٣٠ من صباح يناير عام ١٩٩١، قامت قوات التحالف التى حشدها جورج بوش بضرب العراق، وساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، ظلت الأسلحة ذات التكنولوجيا المتقدمة تلقى بكميات كبيرة من القنابل على المنشآت العسكرية ومرافق البنية الأساسية العراقية، وتحدث صدام حسين من مخبئه قائلاً: " أيها العراقيون الأمجاد، أيها العراقيون الأبطال، أيها العرب، أيها المؤمنون فى كل مكان، إننا صامدون". وراحت الإذاعة العراقية تردد: " يا صدام حسين أنت البسمة على شفاه الكبار والصغار، أنت القمر السابح فوق بلاد الرافدين ".

ومرة أخرى راحت سيارات الأجرة تنقل توابيت القتلى من الجبهة إلى بغداد وأماكن المقابر الشيعية فى كربلاء والنجف، ومرة أخرى أيضاً اضطر العراقيون إلى دفع ثمن أخطاء صدام حسين.

وأخيراً جاءت " أم المعارك " وهى الحرب البرية التى طال انتظار صدام حسين لها، فى ٢٣ فبراير، وقد استمرت مائة ساعة.

وحينما بدأت موجات الهجوم تنهال على الحدود الجنوبية للكويت ، أخذ الجنود العراقيون الذين كانوا يعانون من البرد والجوع والهلع بعد أسابيع من القصف الشديد ، يخرجون من مخابئ صدام حسين الدفاعية ، واتجه الحرس الجمهورى إلى الشمال محاولاً الهرب من التطويق وأصبح الطريق إلى بغداد مفتوحاً . ولكن تقدم قوات التحالف توقف ، فالأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والسعوديون والسوريون والمصريون ، كانوا يريدون أن يقوم الضباط العراقيون السنة بالإطاحة بصدام حسين للحفاظ على العراق سليماً، وسواء كان ذلك خطأ أم صواباً ، فقد ساد إجماع غير مستقر بين صفوف التحالف بأن الإطاحة بصدام حسين فى ظل عدم وجود قوة سياسية تحل محله يمكن أن يفتح الباب أمام مشاكل كثيرة . ففى ظل النزاعات المزمنة ، فإن من المرجح أن ينشر ذم العراق ويصبح منطقة حدودية ضخمة غير مستقرة تستطيع الدول المحيطة بها ممارسة دعاويها الإقليمية والدينية فيها .

ورغم الحصار الذى فرضته الولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات على العراق ، ورغم المعاناة التى يرضخ فيها الشعب العراقى ، ورغم السعى الغربى المحموم لتدمير قدرات العراق العسكرية والاقتصادية ، ورغم كل ذلك لا يزال صدام حياً ، ويرفع شعاره المشبوه صدام حسين هو العراق، والعراق هى صدام حسين ، بينما يعض خصومه الداخليون على أنيابهم من حملات التأديب

والتصفية التى يشنها ضدهم من آن لآخر، فهل ستستمر هذه الوضعية كثيراً ؟

إن أكثر السيناريوهات بروزاً فى هذا الصدد تكرس أنها لن تستمر ويعول كثيرون على أن دفة الحكم ستؤول إلى أحد أبنية عدى أو قصى... فما مدى مصداقية هذا الطرح ؟ هذا ما سنتعرف عليه فى الفصلين القادمين .

قصى ... الرئيس العراقى المنتظر

بعد الحادث الذى تعرض له عدى ، وكاد يتم اغتياله فيه ، أصبح شبه مشلول محدود الحركة ، كذلك علمت العديد من الأوساط يقيناً أن والده لا يثق به كثيراً ، ودائماً ما يشجب تصرفاته ويعنفه عليها ، وفوق كل ذلك فإن الشعب العراقى يضمر له كراهية محمومة، بعد هذا الحادث تسلط الضوء على الابن الأصغر لصدام حسين ... والذى يدعى قصى بوصفه الرجل الثانى فى العراق والمرشح الأول لتولى تقاليد الحكم فى العراق بعد رحيل والده أو تنحيته ... فهل بالغ الذين سلطوا الضوء فى طرحهم هذا ؟ الحقيقة تقول أنهم ليسوا مبالغين !!

والمعروف أن قصى صدام حسين ولد عام ١٩٦٦ ، أى أنه أصغر من شقيقه عدى بعامين ، أيضاً كانت ولادته قبل انقلاب ١٧ يوليو بعامين ، وتمت بالدار التى كان يستأجرها صدام فى دراغ الملتصق بحى المنصور السكنى الراقى بجانب الكرخ من بغداد.

أمضى دراسته الابتدائية فى مدرسة (الفارس العربى) النموذجية والتابعة للقصر الجمهورى ، بينما تلقى دراسته الثانوية فى أرقى مدارس العراق قاطبة (ثانوية كلية بغداد) والتى كانت مدرسة خاصة . ومع أن حزب البعث الحاكم فى العراق كان قد ألغى

قانون المدارس الخاصة وأخضعها جميعها إلى وزارة التربية إلا أن أسلوب وامتيازات وقوانين هذه المدرسة بقيت كلها كما هى . وكانت هذه المدرسة لا تقبل بين طلبتها إلا من يحصل على أعلى الدرجات وكان الطلبة المتقدمون يخضعون لاختبارات قبول تشمل قياس درجة الذكاء وقوة الشخصية ولم يكن طلبتها سوى أبناء الأغنياء والعائلات الراقية .

وفيما بعد تحولت " ثانوية كلية بغداد " لمدرسة خاصة لأبناء كبار المسئولين فى الدولة والحزب والجيش ، وبقيت تتمتع بامتيازات مادية ومعنوية لا تحلم بها إدارة أية مدرسة أخرى ، وكان مديرها وأعضاء هيئتها التدريسية الحاصلون على شهادات عليا يحصلون سنوياً على سيارات جديدة هدية من القيادة العراقية (الرئيس العراقى) .

تقع ثانوية كلية بغداد فى حى راق جداً (الصليخ) بجانب الرصافة وهى مجهزة بأحدث الوسائل التعليمية وتحتل مساحة واسعة محاطة بالبساتين وكانت تفرض عليها حماية مشددة للغاية .

أما عن دراسة قصى الجامعية فلها قصة غريبة . ففى صيف عام ١٩٨٤ ومع بداية الدراسة فى جامعة بغداد فوجئ طلبة وأساتذة كلية القانون والسياسة فى الجامعة التى يقع مبناها فى حى

الأعظمية بجهة الرصافة من بغداد بإجراءات أمنية غريبة ومشددة داخل الكلية وخارجها ، كما فوجئوا بوجود قاعة دراسية إضافية جديدة صغيرة منعزلة عن بقية قاعات ومرافق الكلية تم بناؤها خلال العطلة الصيفية عند الممر الذى يقع شمال البوابة الرئيسية لمبنى الكلية .

تغير مجرى الأمور فى كلية القانون والسياسة ، إذ أضيف حواجز أمنية فى الشوارع المحيطة بالبناية ، كما تم إضافة مبنى أمنى صغير لـ " السيطرة " عند البوابة لتفتيش كل من يدخل؛ سواء كان أستاذاً أو طالباً مع تعليمات مشددة بمنع دخول السيارات أو وقوفها قرب المبنى .

كان حدس الجميع بأن شخصية حكومية مهمة سوف تنتسب للدراسة فى كلية القانون والسياسة ، ولم يكن الرئيس صدام حسين ، فقد كانت رئاسة جامعة بغداد قد منحته شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية مع أنه لم يتمكن من الحصول على شهادة البكالوريوس منها.

وكان سبعاوى إبراهيم الحسن الأخ غير الشقيق للرئيس العراقى يتردد على الكلية بين فترة وأخرى بصفته طالباً فيها وحصل على شهادة الماجستير فى العلوم السياسية خلال فترة قياسية . إذن..

من هو القادم الجديد الذى يتطلب وجوده كل هذه الاحترازات الأمنية؟

سرعان ما عرف الجميع بأن قصى النجل الأصغر للرئيس صدام حسين قد قرر دراسة العلوم السياسية ، إذ كان قد تخرج توا من أرقى المدارس الثانوية العراقية (كلية بغداد) وحصل فى البكالوريا أو ما يعادل الثانوية العامة ، معدلاً عالياً جداً .

كان بإمكان قصى صدام حسين أن يختار ، كما فعل شقيقه عدى ، الدراسة فى كلية رفيعة المستوى ، حيث كان عدى قد اختار الدراسة فى كلية الهندسة وحصل على شهادة الماجستير فى الهندسة المدنية . لكن فى إختيار قصى لدراسة العلوم السياسية كان إشارة واضحة من قبله أو حتى قبل والده الرئيس بأنه يتهيأ ليتبوأ منصباً سياسياً مؤثراً وكبيراً فى القيادة العراقية ، وما كان أحد من الأساتذة أو الطلبة يتوقع بأن يكون هذا الطالب الهادئ والذى بدا متواضعاً ومبتسماً سيكون رجل العراق القوى والأكثر خطورة بعد والده ، وأنه سيمسك بيده قيادة أكثر الأجهزة الأمنية قوة وبطشاً .

وكانت بناية الكلية تحاط من كل جانب بأفراد الحماية . كما كان هؤلاء يتوزعون فوق سطوحها ، وسرعان ما تم اختيار طاقم تدريس خاص للنجل الأصغر للرئيس صدام حسين .

منذ تلك الفترة عرف عن قصى ذكاؤه فى التعامل مع الأمور إذ كان يظهر دائماً متواضعاً مع الجميع لهذا لم يرض أن يأخذ المحاضرات فى الكلية لوحده فقامت لجنة خاصة باختيار عشرة من الطلاب والطالبات ليشكلوا بقية طاقم الصف الدراسى وتم اصطفاء هؤلاء الطلبة بكل عناية من حيث نسبهم العائلى ودرجة ولائهم وعائلاتهم للرئيس العراقى ودرجاتهم الحزبية .

وتروى (ش . م) التى كانت طالبة فى ذات الصف الذى يدرس فيه قصى بأنه رفض ومنذ اليوم الأول دخول أفراد الحماية لقاعة المحاضرات ، وتقول : " فى أول يوم كنا قلقين إذ سيدخل بعد قليل نجل الرئيس صدام حسين الذى لم نكن نعرف عنه أى شئ على العكس من شقيقه عدى الذى كنا نسمع عن تصرفاته سواء فى كلية الهندسة أو فى النوادى الاجتماعية .

وتضيف : " لكننا فوجئنا بدخول اثنين من أفراد الحماية اتخذا لهما موقعاً فى آخر القاعة ، وما أن دخل قصى حتى بدأ غاضباً وأمر بطرد أفراد الحماية وهو يقول : "هذه قاعة محاضرات جامعية مقدسة أخرجا من هنا ، ثم صافحنا جميعاً وهو يقدم لنا نفسه ويتعرف علينا قبل دخول الأستاذ المحاضر " .

لكن أفراد الحماية كانوا يحيطون بالقاعة مانعين أى من الطلبة أو الأساتذة من الاقتراب منهم ، بل مانعين أى شخص من الدخول أو الخروج من الكلية بعد دخول قصى إليها .

ومما يروى عنه خلال تلك الفترة ومن مصادر طلابية مقربة منه أن أحد الأساتذة شعر يوماً وهو يلقى محاضرته بحرارة الجو رغم تكييف القاعة وطلب الإذن من قصى بفتح الشباك . وعندما حاول أحد الطلبة فتح الشباك وجده مغلقاً بإحكام ، فضحك قصى ، وقال مجاملاً : " أستاذ هذا ليس شباكاً حقيقياً إنه مجرد ديكور ، ورغم أوامره بفتح الشباك إلا أن الحماية لم تمتثل لمثل هذا الأمر الذى يشكل وجوده خطراً على حياته ".

كان قصى صدام حسين يذهب إلى نادى الكلية ويجلس مع الطلبة تحت أعين ونظرات حراسه اللذين لا يجرءون على الاقتراب منه ، كما كان ينظم لطلبة صفه رحلات فى عطل نهاية الأسبوع إلى إحدى المزارع الخاصة بعائلته .

أراد أن يظهر للآخرين بمظهر المتواضع وأنه أحد أبناء الشعب ، مع أنه كان حازماً ، ونظراته قاسية وصارمة ، لم يكن أحد يجرؤ على معارضة رأيه أو حتى المزاح معه وكان يتصرف بموقع وعمر

أكبر من موقعه ومن عمره كطالب في السنة الأولى من دراسته الجامعية .

وإذا كان قد أمضى السنة الأولى شبه منتظم في حضوره ، فإن هذا الانتظام لم يعد مهماً بالنسبة له إذ كان يحضر فجأة ويغيب فجأة كي لا يترك مجالاً لأي شخص معرفة فيما إذا كان سيحضر في ذلك اليوم أم لا .

ومن سماته وسلوكياته الشخصية: إنها مزيج من الهدوء والغموض والقسوة في آن واحد ....

إذ في عام ١٩٨٥ وعندما بدأ عدي مشواره بالسيطرة على الحركة الرياضية في العراق وأسس " نادي الرشيد " الرياضي ثم أصدر مجلة رياضية ملونة أسبوعية " الرشيد " وصحيفة رياضية يومية " البعث الرياضي " حاول أن يقحم شقيقه قصي في عالم الصحافة الرياضية فوضع اسمه كرئيس تحرير لصحيفة " الرياضي " التي كانت تصدر وقتذاك عن اللجنة الأولمبية العراقية . لكن سرعان ما حذف قصي اسمه من تلك الصحيفة في إشارة واضحة إلى أنه لا يريد أن يكون تحت الأضواء .

ورغم ما عرف عن ولعه بالسيارات الغالية مثل " فيراري " و " بورش " وغيرها من السيارات السريعة والغريبة إلاأنه غالباً ما كان

يظهر وهو يقود سيارات متواضعة بإمكـــان المواطنين قيادتها مثـــل " تويوتا سوبر صالون " أو" سيارة مرسيدس " عادية .

لم يظهر قصى يوماً بموكب أو بهيئة رسمية ، إذ غالباً ما يقود سيارته منفرداً دون حراسة أو حماية ، وله حسابات أمنية ذكية جداً في هذا الموضوع ، إذ لا يعرف أحد ما إذا كان هو الذى يقود هذه السيارة أم لا .

ويسيطر قصى على أكثر الأجهزة الأمنية والعسكرية قوة فى العراق، فهو رئيس جهاز الأمن الخاص ، والمشرف على قوات الحرس الجمهورى ، ومن ضمنها قوات الطوارئ ، وهو المسئول الأول عن رئاسة المخابرات العراقية ومديرية الاستخبارات العسكرية ومديرية الأمن العام ... وهو وحده الذى بيده إصدار قرارات إلقاء القبض على أكبر المسئولين فى الدولة أو الحزب أو الجيش بالطبع بعد والده .

وكذلك يستطيع قصى إصدار قرارات الإعدام من غير الحاجة للرجوع لصدام ، أيضاً تقع مسئوليته على أكثر معسكرات التعذيب شهرة فى العراق (معسكر الرضوانية)، وهو أيضاً سكرتير ما يعرف بالأمن القومى الذى يشرف على جميع الأجهزة الأمنية بالعراق .

ويذكر أن قصى ما زار مرة أى معتقل أو سجين إلا وأمر بإعدام العشرات والمئات ، حيث زار ذات مرة سجن " أبو غريب " وأمر بإعدام أكثر من ١٣٠٠ سجين فى حملة عرفت بـ " تبييض السجون " أو " تنظيف السجون ".

وربما لا يثق الرئيس العراقى صدام حسين بأحد غير قصى ، وربما لا يعرف أحد مكانه غيره باستثناء سكرتيره الشخصى.

وليس لأحد داخل العراق أو خارجه أن يتصور أن قصى زاهد بأمور الدنيا ومنشغل بالجانب الأمنى فى القيادة العراقية . إن درجة اختلافه مع شقيقه عدى تكمن فى درجة كتمانه العالية ، فبينما عدى واضح للعيان ، ونزواته معلنة ، فإن نزوات قصى تتم بصورة سرية بعيدة عن أعين الآخرين .

قبل دراسته الجامعية لم يكن هكذا ، إذ كان يظهر باستمرار مع شقيقه عدى محاطين بفريق من الحسناوات المترفات، وكان طيشه لا يقل عن طيش شقيقه الأكبر عدى . فعندما كان فى الدراسة الثانوية ، وبينما هو يقود سيارته فى أكثر شوارع بغداد ازدحاماً (شارع السعدون) توقف عن قيادة سيارته وهبط مع أصدقائه ليشبعوا سائق سيارة أجرة كبيراً فى السن ضرباً لمجرد أنه أعاق من غير أن يدرى ، اجتياز سيارة قصى .

لقصى " شلته " التى تختلف عن " شلة " عدى ، فهو دقيق فى اختياره لأصدقائه. وكان يظهر فى " نادى الزوارق " الرئاسى المطل على نهر دجلة فى منطقة الجادرية بجهة الرصافة من بغداد مع الفنانات العربيات اللواتى كن يلبين دعوات رسمية لزيارة بغداد ، وحتى اليوم له قصوره الخاصة ، وسهراته الخاصة أيضاً .

والسؤال الآن هو... هل سيكون قصى هو الرئيس القادم للعراق ؟

لقد نقلت الصحف العراقية صورة للنجل الأصغر للرئيس العراقى قصى، وهو يقبل والده مستأذناً إياه بالتوجه إلى جبهات القتال ، حيث لم يتمكن عدى وطوال فترة حرب الخليج الثانية من مقابلة والده الرئيس ، بل ولم يعرف عنه أى شىء إلا عن طريق سكرتيره الشخصى أو عن طريق شقيقه الأصغر قصى الذى كان ملازماً لوالده طوال فترة الحرب ، ولا يخفى على العراقيين بأن طموحات عدى بأن يكون الرئيس القادم للعراق لا تجعله يتأخر فى التآمر حتى على والده ، وذلك قبل إصابته فى محاولة الاغتيال التى أفقدته القدرة على الحركة . بينما لا يخشى الرئيس صدام خطوة مثل هذه من نجله الأصغر قصى .

فهل لقصى طموحات قيادية ؟ بالطبع . فرجل فى مثل عمره " ٣٢ عاما "، وله كل هذه الصلاحيات المطلقة ، ويتمتع بكل هذه القوة والسيطرة على أقوى وأخطر الأجهزة الأمنية والعسكرية لابد أن يكون له طموحات باحتلال موقع والده إذا ما أصبح شاغراً .

ومنذ أن وزع الرئيس صدام حسين النفوذ بين والديه أصبح واضحاً أنه يفضل أن يمثل نجله الأصغر مراكز القوة الحقيقية ، لهذا سلمه قيادة الأجهزة الأمنية ومفاتيح قوات الحرس الجمهورى ، بينما منح لنجله الأكبر عدى مواقع براقة من الخارج ولا تعنى الشىء الكثير للرئيس من الداخل مثل السيطرة على الإعلام العراقى والطلبة والشباب والصفقات التجارية .

وكان ما يزال الرئيس صدام حسين يتحكم بصمامات اندفاع عدى إذ غالباً ما جرده وبصورة غير معلنة من صلاحياته وحد من تدخله فى شئون الدولة ، لكنه (الرئيس العراقى) لم يفعل كذلك مع قصى الذى وجد فى شخصيته المميزات التى تجعله الرجل الأقوى ، بل والرجل الثانى بصورة فعلية فى العراق .

إذ أن درجة تكتم قصى حتى على أقرب المقربين منه تجعل خططه أبعد ما تكون عن الكشف ، حتى تلك الخطط والسيناريوهات التى جهزها ليكون الرئيس المقبل للعراق بعد والده .

عدى ... ديكتاتور فى الأسرة ... بعيد عن كرسى الرئاسة

إنــه شـاب مستهتر يعيـش حياتـه بـالطول والعـرض ، مغـرم بحسب الظهور، مستبد بطبيعته ، زئر نساء ، علاقته بكل المحيطين به صدامية دوماً ، كثير الإحـراج لأبيـه ، هكذا يقـول المهتمون بالمسألة العراقية عندما يخوضون فى سيرة عدى . الابن الأكبر لصدام حسين ، ويضيف هؤلاء ، أنه لهذه الأسباب وغيرها فإنه من المستبعد أن يكون عدى هو الرئيس المنتظر للعراق ، ويكفى أن يعرف المرء أن صدام لم يضرب شقيقه الأصغر قصى سوى مرة واحدة منذ عام ١٩٨٣ فى حين ضرب عدى أو صفعه أو جلده أكثر من عشرين مرة خلال المدة نفسها .

لقد وجد صدام فى عدم تشابه الأخوين عدى وقصى سبباً فى توزيع الأدوار بينهما بما يرضى طموحات كل منهما . فأتـاح لعدى المولع بالظهور تحت الأضواء أن يبنى مؤسسته العلنية المتنفذة التى سيطرت على التجارة المحلية والتجارة مع الدول المجاورة كما هيمنت على وسائل الإعلام والمنظمات المهنية للطلبة والصحفيين والفنانين والأدباء . وتطور دور هذه المؤسسة بظهور تنظيم عسكرى غير نظامى يقوده عدى ويعرف باسم " فدائى صدام " . ومنح الرئيس ولده الغطاء العملى لتحركاته : نظام أمنى فى كل تنقلاته جرى

اختياره من جهاز الأمن الخاص . ورتبة عسكرية بدرجة فريق لإلزام كبار الضباط طاعة أوامره . كذلك إعطاؤه حق سجن أو إعدام كل من يمس شخصه أسوة بما يتمتع به أبوه بموجب قرار شهير يعمل به فى العراق منذ سنوات عدة .

وقد دخل عدى المواجهة المباشرة مع أعمامه الثلاثة برزان وطبان وسبعاوى ، كما دخلها ضد على حسن المجيد ، وأخيراً مع حسين كامل ، وبات القناة التى تنظم تمرير المعلومات عن كل منهم إلى أبيه . ويقال أن عدى قد قتل عمه وطبان الذى اعترفت الحكومة أنه توفى أثر إصابته بطلق نارى بالفعل قبل أسبوع لكنها عزت ذلك إلى طلق نارى طائش أصيب به فى حفل عام .

أما ساجدة خير الله طلفاح والدة عدى ، فقد وقفت إلى جوار ابنها بشكل دائم بعد أن استجاب لها فى سنة ١٩٨٨ وقتل كامل حسن أحد السعاة بين الرئيس وزوجته الثانية التى يتردد أنها تدعى (س . ش) والتى يقال أن لصدام ولدا منها اسمه على .

وليس من قبيل المصادفة ألا تحتل ساجدة مناصب رسمية أسوة ببقية أفراد الأسرة، لأنها عرفت بالسطحية . وقد وضعت فى دائرة محدودة بعيداً عن الأضواء . وساجدة طلفاح تبالغ كثيراً بمقتنياتها من المجوهرات والماس ، وهى تعد واحدة من أثرياء النساء

فى العالم وتمتلك جزءاً خاصة فى البرازيل واليونان ، ومصانع للأدوات الزراعية .

وكانت علاقاتها بصدام حسين ترددت كثيراً. بعد مقتل شقيقها عدنان خير الله طلفاح ، وزواجه من أخرى وهى تقيم حالياً فى بيت منفصل وتخضع للتفتيش فيما لو جاءت لزيارته.

وبقدر ما كانت علاقات عدى مع والدته وطيدة ، ساءت علاقات عدى مع أخواته الثلاث بسبب نزعته لفرض سطوته عليهن وخاصة زوجتى حسين وصدام كامل . وقد أدى ذلك إلى التباعد بين امرأتين وجدتا أن أخاهما لا يملك حق ممارسة السلطة التى اعتاد عليها الأب داخل البيت ، وأن زوجيهما يملكان فقط حق التدخل فى شئونهما .

وبدا واضحاً منذ سنة ١٩٩١ أن علاقة عدى بكل من رغد ورنا سارت إلى القطيعة ، فى حين ظل يتدخل فى شئون أخته الثالثة حلا قبل أن تتزوج سنة ١٩٩٤ من جمال مصطفى التكريتى وهو قريب الصلة من حسين كامل حيث ينتميان إلى نفس الجناح فى العائلة ويقترن أخوه الأكبر اللواء كمال مصطفى التكريتى من شقيقه حسين كامل.

كان الرخاء الذى عاش فيه عدى والحرية المطلقة التى تمتع بها فى حياته وسلوكه نقيضاً لمناخ من الكبت والقسوة الذى طبع حياة أخواته الثلاث. كانت حلا الأصغر عمراً هى الوحيدة التى تملك بعض الحظوة لدى أبيها ربما بسبب صغر سنها ، فى حين كان على رغد ورنا منذ بلوغ كل منهما الثانية عشرة من العمر أن تخضعا لنظام صارم فى العلاقة مع أبيهما ولذلك وجدتا فى زوجيهما الخلاص من نظام أبوى صارم . وكان من بين قرارات صدام دائماً رفض رغباتهن فى السفر والإقامة لفترات طويلة فى الخارج .

وحين كبر عدى وأراد أن يتقمص دور أبيه فى إصدار الأوامر إلى شقيقتيه كان الوقت قد تأخر وبات بإمكانهما أن ترداه بما حصلتا عليه من قوة، باقترانهما بحسين كامل وصدام كامل .

إلا أن صدام وقف مرة واحدة ، إلى جانب ابنته رغد المتزوجة من حسين كامل ، فقد ارتبطت رغد بعلاقة عاطفية مع قائد الدراجة البخارية مساعد العريف حسين كامل (وقتها) وكان ينتمى إلى العائلة بالقرابة .

ولما تقدم لخطبتها وجد معارضة شديدة من شقيق صدام حسين برزان ، ومن جدها لوالدتها وحدثت مصادمة مسلحة سمع على أثرها دوى رصاص فى المجمع الرئاسى الواقع على طريق المطار.

وكانت وجهة نظر المعارضين وكان من ضمنهم عدى أنه ليس من المنطق أن يتزوج رغد من رجل " ساع " لكن والدها صدام حسين وقف إلى جانبها واحتضن المساعد العريف حسين كامل .

أما قصى والذى تحدثنا عنه بتفصيل أوسع فى الفصل السابق فقد نحا فى اتجاه سلوك آخر مخالف لسلوك عدى داخل العائلة ، ونأى منذ صغره عن التدخل فى شئون أخواته . لذلك لم يصطدم بهن بعد زواجهن وحافظ على علاقاته الهادئة معهن . كما كان صدام حسين كامل من أقرب الناس إلى قصى حتى حرب الخليج، وهى علاقة لم تكن موجودة بين عدى والأخوين كامل . ولم تتدهور علاقات قصى بهما إلا فى السنتين الأخيرتين بعدما اتسع نفوذه فى جهاز الأمن الرئاسى وسيطر على قوات الحرس الجمهورى والحرس الخاص وأفواج الطوارئ التى ارتبطت جميعها بهيئة تنسيق مركزية أنيطت به مهمة رئاستها ، بحيث لم يعد لأى من الأخوين كامل نفوذ على هذه الأجهزة العسكرية والأمنية .

وتحاشى قصى الحاصل على بكالوريوس فى القانون من جامعة بغداد على العكس من أخيه الاصطدام بالوزراء وكبار الموظفين ، ونظم اتصالاته بهم على المستوى الرسمى الذى يخلو من الطابع الشخصى . وكان يلجأ إلى إحالة ما لديه من ملفات معهم إلى

كبار موظفيه ليتولوها بصورة رسمية . كما تحاشى الظهور فى أجهزة الإعلام ورفض إقران اسمه بالهيئات العامة رياضية واجتماعية ومهنية .. ولم يصطدم مع عمه وطبان عندما كان وزيراً للداخلية ورئيساً للجنة سداسية تنسق بين أجهزة الأمن والاستخبارات العسكرية والمخابرات والأمن الخاص والأمن العسكرى ووزارة الداخلية ، وكان قصى عضواً فيها .

وأتاح له زواجه المبكر من ابنة الفريق ماهر عبد الرشيد وهى ليست منه دائرة القرابة المباشرة مع عائلة أبيه أن يتخلص من الحساسيات العائلية المفرطة فى تلك الدائرة.

كان عدى قريباً على الدوام من والدته وكان قصى قريباً على الدوام من والده ، وعلى الرغم مما يبدو على الأخ الأكبر من طموح معلن للحلول بدل أبيه فى حالة حدوث أى فراغ فى موقعه إلا أن قصى ما يزال فى حقيقة الأمر هو الشخص الأكثر إعداداً لنفسه. لأداء هذا الدور بعد أن غلف موقفه بكثير من الغموض ، وأخفى إعلان طموحاته ، ولم يثر حفيظة المنافسين الآخرين كما حصل مع عدى .

ولم يقم قصى بعلاقات كثيرة فى المجتمع وكان شديد التحفظ على أصدقاء أخيه ، ويرفض التعامل مع معظمهم ويرى فيهم

أشخاصاً يستدرجونه إلى ما هو أقل من الشأن الذى يطمح له فى المجتمع والدولة .

وعلى هذا الأساس فإنه إذا كان سيتم تفعيل سيناريو اعتلاء أحد والدى صدام الحكم فإن قصى وليس عدى هو صاحب الفرصة الأكبر فى هذا الخصوص.

فهرس

ملوك وأمراء

الأسرار من الداخل

هذا الكتاب يبحث فى موضوع محرم الخوض فيه ، وممنوع الإشارة إليه وهو الأسرار الخفية للملوك والأمراء العرب ،فالكتاب يحلل الأسرار والخفايا ويسلط الضوء عليها بفضل المعلومات المستقاة من أعلى المصادر ليسرد الأحداث كما لو أنها تحدث أمام أعيننا ..

هذا الكتاب سيغضب كل الأطراف إلا اثنين ضميرى والقارئ.

عادل عب

الدار العالمية للكتب والنشر